مقـــدمـــة
كتاب الجماهر في معرفـــة الجواهر
للبـــيروني*

سامي خلف حمارنه**

من أكثر العلماء المسلمين أصالة وإنتاجاً في زمنه بلغة القرآن في العلوم والمعارف كان أبو الريحان البيروني (٣٦٢ – ٤٤٣هـ / ٩٧٣ – ١٠٥١م)[١] . وهو معاصر الشيخ الرئيس ابن سينا بإيران والحسن بن الهيثم في العراق ومصر وعلي بن حزم في الأندلس . ومن بـــين كتب البيروني في التاريخ الطبيعي اثنـــان في غاية الأهمية : أولهما **الصيدنة في الطب**[٢] والثاني **كتاب الجماهر في معرفة الجواهر** ألفهما في السنين الأخيرة في حياته

---

* محاضرة أعدت بمناسبة الندوة العالمية الثانية لتاريخ العلوم عند العرب (نيسان ١٩٧٩ ، جامعة حلب ، حلب، سورية) ، تمت مراجعتها مع إضافات للنشر .

** كلية العلوم الطبية ، إدارة الصحة العامة ، جامعة اليرموك ، اربد ، الأردن .

١ – هو أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي (ت ٤٤٣/١٠٥١) من أعظم علماء المسلمين وأكثرهم أصالة ، كتب في علوم الفلك والتنجيم والرياضيات والعلوم الطبيعية والجغرافيا والتاريخ والأنساب والفلسفة الاجتماعية وقد ولد في ٣ ذي الحجة ٣٦٢هـ/٤ – ١٠– ٩٧٣م في (Khiva or Kath) مدينة خوارزم أو ضواحيها على الأرجح (كان في دلتا آمودار يا السوفياتية اليوم على الشاطئ الجنوبي لبحر خزر أو قزوين = آرال) ، ثم تتلمذ على أبي نصر الجيلاني وكانت له علاقة صداقة ومراسلات مع معاصريه ابن سينا وعيسى المسيحي وخدم السلطان منصور بن نوح الساماني (٣٨٧ – ٣٨٩هـ / ٩٩٧ – ٩٩٩م) ثم أبي الحسن قابوس شمس المعالي في جرجان ، والسلطان أبي الحسن علي بن مأمون وأخيه الخوارزمشاه أبي العباس مأمون قبل أن ينخرط في خدمة الغزنويين ومعهم زار الهند وسكن غزنة (في الأفغانستان اليوم) حيث بقي يؤلف ويكتب حتى وفاته وعمره حوالي ٧٨ سنة مملوءة بالإنتاج القيم والخدمة للعلم وتقدم الإنسانية الفكرية: انظر **فهرس الظاهرية** ، **الطب والصيدلة** ، دمشق، ١٩٦٩ ، ص ١٠٤ – ١٢٧ ، وفهرس المخطوطات في الطب والصيدنة في المكتبة البريطانية ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ٩٣ – ١١٠ .

See D. J. Boilot, « L'œuvre d'al-Berūnī essai bibliographique», *Mélange*, Cairo, vol. 2 (1955), pp. 161–241, and vol. 3 (1956), pp. 391–396.

٢ – إن كتاب البيروني ، **الصيدنة في الطب** قد تم تحقيقه ونشره مع تقديم وتقييم مختصر في كراتشي – الباكستان تحت إشراف مؤسسة همدرد الوطنية ورئيسها الحكيم محمد سعيد، في جزئين سنة ١٩٧٣م، وقد ترجم إلى الروسية مع شرح وتعليقات بقلم عبيد الله كريموف ، طشقند، ١٩٧٤م . هذا آخر كتاب للبيروني وقد توفي قبل أن تتاح له فرصة تبييض المسودة التي أعدها للمقارنة بين صيدنة البيروني ومفردات الطب للغافقي، انظر : – « الصيدلة والمواد الطبية عند البيروني والغافقي » ، **عاديات حلب** ، الكتابان الرابع والخامس ، ١٩٧٨ – ٧٩ م ، ص ٢٥٠ – ٢٥٥ .

فاحتويا على الكثير من غنى خبرته في العلوم الحياتية والبَحْتة والتقنية والاجتماعية.[1] وفي هذه المقالة يهمنا كتابه هذا في **الجواهر** وبالذات **مقدمته للكتاب** الذي يعتبر من أهم تصانيفه وأكثرها أصالة[2] ويتبين من هذه المقدمة أن البيروني قد نسق مقالاته وأتمها زمن السلطان مودود بن مسعود بن محمود الغزنوي (٤٣٢ – ٤٤١هـ / ١٠٤٠ – ١٠٤٨م) وربما في مطلع ملكه (حوالي سنة ١٠٤٤م) وعمر المؤلف آنذاك سبعون عاماً ونيف ، ويقول فيها: « نريد الآن نخوض في تعديد الجواهر والأعلاق النفيسة المذخورة في الخزائن ونفرد لها مقالة تتلوها ثانية في أثمان المثمنات وما يجانسها من الفلزات فكلاهما رضيعا لبان في بطن الأم وفرسا رهان في الزينة والنفع[3] ويكون مجموعها تذكرة لي في خزانة الملك الأجل المعظم شهاب الدولة أبو الفتح مودود بن مسعود بن محمود قرن الله بشبابه اغتباطا وزاد يده بالنصر تطاولاً وانبساطاً فإنه لمـــا فوض لله تعالى أمره تولى إعزازه ونصره وحين نَصَبَ حب الله بين عينيه عفا عن من استغاث باسمه وأمن من استأمن بذكره وأخفى صدقاته بعد صلاته البادية ليفوز بمـــا هو خير له في السر والعلانية» .

---

١ – مقدمتا كتابي البيروني **في الصيدنة وفي الجواهر** يمكن اعتبارهما من أروع ماكتب بالعربية في العصر الوسيط في موضوعهما فهما حافلتان بالأفكار الجديدة النيرّة عن حياة المؤلف الشخصية وآرائه الأصيلة في العلوم والاجتماع والاقتصاد حتى أن ادورد سخاو يعتبره أعظم عقلية عرفها التاريخ وقد مدحه ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ) في **معجم الأدباء** ، القاهرة، دار المأمون ، ١٩٣٦، ص ١٨٠ – ١٩٠ ، في أول ترجمة مسهبة لحياة هذا العالم العبقري .

٢ – **كتاب الجماهر في معرفة الجواهر** للبيروني تم طبعه وتحقيقه في حيدر آباد ، دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م بواسطة المستشرق فرتيز كرنكو وقد اعتمد في عمله على ثلاث نسخ: الآستانة بمكتبة طوب كاباي والآن مكتبة أحمد الثالث تحت رقم طب ٢٠٤٧ في ١٩٣ ق تم نقلها سنة ٦٢٦ هـ وهي أصح النسخ بخط أحمد بن صديق بن محمد الطبيب ونسخة راشد بالقيصرية ونسخة الاسكوريال رقم ٩٠٥ عربي (الطبعة جيدة ماخلا أخطاء قليلة) . أماكاتب هذه المقالة فقد اعتمد بالإضافة لهذا على نسخة جامعة هارفارد والتي ربما هي نسخة عن مخطوط الآستانة السابق ذكره كما وقد فحص نسخة في مكتبة البودليان بجامعة أكسفورد بانكلترا (ناقصة) ذكرها أيضاً E. B. Pusey في فهرست مخطوطات بودليان العربية الشرقية طبع أكسفورد ، ١٨٣٥، ص ١٢٦ ، وتوجد نسخة بالقاهرة ، المكتبة التيمورية ، رقم ١٥٣ طبيعيات .

٣ – الجوهر في العربية هو كل حجر يستخرج منه شيء ينتفع به وهنا أطلق على الأعلاق النفيسة من الجواهر (المجوهرات) ، والجوهري هو صانع وبائع الجواهر . والفلز بكسر الفاء واللام وشد الزاي هو أصلاً نوع من النحاس الأبيض تجعل منه القدور المفرغة أو خبث الحديد أو الحجارة أو جواهر الأرض كلها أو ماينقيه الكير من كل مايذاب منها وهنا يشتمل على الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص وإن نفعها بالتداول وليس بالخزن في باطن الأرض إذ لم تكن آنذاك متاحف عامة بعد لعرضها على الجماهير . انظر **القاموس المحيط** لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، البابي الحلبي، ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م ، ج ١ : ٤١٠ ومجلد ٢ : ٥١٩٣ .

ثم إن النصوص والمقدمة نفسها تفيدنا بأن تأليف الكتاب قد تم أيضاً في مدينة غزنة حاضرة السلطنة (في جمهورية الأفغانستان اليوم)[1] .

يستهل المؤلف كتابه **الجماهر في معرفة الجواهر** في مقدمة مستفيضة تحتوي على فصلين قصيرين وافتتاحية ثم خمس عشرة ترويحة كأنها مراحل توقف للتفكير والتأمل الروحي والاستجمام الفكري والإيحاء[2] . وفي هذه المقدمة يستودع البيروني خلاصة تفكيره في أمور فلسفية وعلمية واقتصادية ودينية واجتماعية في غاية الأهمية والأصالة والروعة . وماهذه المقالة إلا محاولة متواضعة وجدية لتقييم ماأراده البيروني أو ماكان يجول بخاطره لنقله إلى القارئ من أفكار وآراء وتوجيهات من خلال مقدمة الكتاب والتي تثير في النفس تساؤلات عديدة نبينها ونشرحها باختصار بالطريقة التالية :

١ – هل كانت المناقشات والأفكار والمبادئ التي خطتها يد الشيخ العالم أبي الريحان البيروني وهو يدبّ بخطى وئيدة إلى نهاية مسيرة هذه الحياة الدنيا أفكاراً عابرة متفرقة وخواطر ثائرة أو شاردة لاتربط بينها أوصال ولا تنتظم منها رؤية واضحة أو توجيه جاد معين ؟ .

٢ – أو كانت تعابير روح ثائرة على مجتمع مادي يعتوره الفساد والظلم والتكالب والأنانية وانتقاداً ساخراً لأنظمة بالية فيزيح بقلمه الغطاء عن عوراتها ويكشف أستار محتوياتها ومكنوناتها سافرة أمام نور الحقيقة وجمال الفضيلة ومكارم الأخلاق ومجد الخلود ؟[3] .

---

١ – البيروني ، **في الجواهر** ، طبعة ١٩٣٦ م السابق ذكرها ص ٣١ ، ٤٩ . بلغت مدينة غزنة زمن المؤلف أعلى درجات الأهمية والعظمة والنفوذ وامتدت سلطة ملوكها من أواسط الهند إلى إيران وفي ذلك الباكستان والأفغانستان والبلاد المجاورة لهما ويعتبر الأمير محمود الغزنوي مؤسسها الحقيقي انظر محمد ناظم ، **حياة السلطان محمود الغزنوي وزمنه** ، كمبردج إنكلترا ، ١٩٣١ م .

٢ – كلمة الترويحة استعملت في شهر رمضان المبارك لاستراحة العابدين بعد كل أربع ركعات فسميت صلاة التراويح لأنهم كانوا يستريحون بين كل تسليمتين (مفردها ترويحة) ثم أطلقت على الجلسة مطلقاً للترويح عن النفس . انظر **لسان العرب** لجمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري ابن منظور ، طبعة القاهرة ، بولاق ، ج ٣ : ٢٨٧ – ٢٨٩ .

٣ – **المقدمة** لكتاب البيروني **في الجواهر** تتضمن مبادئ وخواطر واتجاهات لابد أنها كانت تحوم في فكر هذا العالم القدير والباحث المدقق والاجتماعي الخبير العارف بأحوال الطبيعة البشرية والآن قد حانت له الفرصة للمشاركة بل والمساهمة بها والكشف عنها كأفكار متواترة في كتاب علمي لاينتظر أن تثير أية ضجة أو معارضة

←

٣ – أو أنه يقدّم فيها نظاماً اجتماعياً شاملاً وصالحاً يتماشى مع روح عصر سداته الايمان والمروءة ولحمته الدين الصحيح الحنيف كاشفاً فيه عن أهداف وآراء اقتصادية وأخلاقية بنّاءة شافية لأسقامه الكثيرة ؟ .

٤ – أو هل هي تصدير مبدئي وتقديم مقصود وتمهيد متسلسل ليرينا علاقة هذه الأحجار الكريمة والفلزات النفيسة والأعلاق المفضلة التي هي موضوع الكتاب نفسه بما لها من صلات وتأثيرات وملابسات في مجتمع مشعب الأهداف متباين في مآربه ومشاربه معقد في أطماعه وأحلامه ومعاملاته ، كثيرة تيّاراته الفكرية والمادية ؟ أو هل هذه هي الأسئلة الأربعة مجتمعة مترابطة؟ وأن هناك خيطاً غير منظور يجمع هذه الدرر المتناثرة في قلادة أو عقد متصل الحلقات جميل الرونق نادر الثمن ؟ .

في مقدمة الجماهر هنا لأول وهلة نجد أمامنا أفكاراً جديدة نقادة في الفقه والتشريع والعلوم العامة والتاريخ الطبيعي والأدب والاجتماع والتجارة والعمران متبعثرة حينا وحينا في اتساق وتخطيط مرسوم ربما يراد الوصول به إلى غاية الكتاب نفسه ومادته أو إنها طفرة مقصودة تُعَبِّر عن تبرم المؤلف من المجتمع البشري كلية أو تأسفه على أحلام وأمان رفيعة لم تتحقق فانطلقت هنا معبرة عن إرادتها بحرية رفيقة وبساطة جريئة[1] .

للإجابة بوضوح ودقة لابد من تقيم هذه الفصول وتعيين اتجاهاتها واحداً واحداً

← من أعدائه وأولئك الذين يحاربون كل اكتشاف ويناوئون كل فكر جديد محدث انظر مقدمة أ.م. بلنسكي ، **في علم المعدنيات** ،موسكو ، ١٩٦٣ م ، والجمعية الإيرانية ، **كتاب تذكاري للبيروني** (٣٦٢ – ١٣٦٢هـ) كلكتا الهند ، ١٩٥١ م ، بول كراوس ، « البيروني عالم القرون الوسطى الإيراني » ، **مجلة الإسلام الألمانية** ، ٢٦ (١٩٤٠م) ص ١٥ ، وماكتبه أيلهارد فيديمان في أعمال البيروني في العلوم الطبيعية، ارلانجن ، ألمانيا ، وبنوع خاص أطروحة صديقنا المرحوم الدكتور محمد يحيى الهاشمي **في كتاب البيروني في الجواهر** ، بون ، ألمانيا ، ١٩٣٥ م (بالألمانية) .

١ – عبقرية البيروني تبدو أيضاً في سعة اطلاعه وقوة ملاحظته فهو يتكلم في العلوم الطبيعية والاقتصادية والدين والاجتماع والسياسة بهدوء وثقة العارف بموضوع بحثه وبأصالة الباحث فيما يعرفه عن اختبار شخصي بدون تكلف أو مراوغة لذا يطلع علينا بنظريات مقبولة وآراء هامة وتعقيبات تلقي ضوءاً كاشفاً لنا الكثير عن تلك الحقبة التي عاش بها في تاريخ الأمة الإسلامية لذلك نجد جورج سارتون في **مقدمته لتاريخ العلوم**، المجلد الأول ص ٦٩٣ – ٧٣٧ يطلق على النصف الأول من القرن الحادي عشر ، م ، عصر البيروني ولكنه أخطأ بظنه أنه شيعي معاد للعربية والعروبة فقد كان بعكس ذلك .

For detail see E.S. Kennedy, «Al-Bīrūnī.» *Dictionary of Scientific Biography*, vol. 2. New York, C. Schribner's Sons, 1970, pp. 147–158.

مع تحليل مقتضب لمحتوياتها ومقاصدها وأسبابها القريبة والبعيدة ولابد لنا من القول قبل البدء في التعليق والشرح بأن هذه المقدمة بجملتها تقدم لنا حقاً قطعة أدبية رائعة ودرساً اجتماعياً قيماً ونبذة علمية نادرة وشرحاً موضوعياً بديعاً لأحوال الدين والدنيا للمجتمع الإسلامي في العصر الوسيط وكل ذلك في نظر ثاقب رصين مؤمن بالحياة ويهزأ بالإخفاق والانهزامية والإذعان .

الافتتاحيـــة :

يهمل البيروني في افتتاحية كتاب الجماهر هذا ذكر اسم الكتاب وعنوانه من ناحية أو مقصده وأهدافه وأغراضه من ناحية أخرى كمـــا نجد في كثير غيره من تآليف هذا العصر الهامة في شتى العلوم[1] ، فلعل المؤلف اكتفى بذكر تصدير مقتضب معـــبر بكلتا الحالتين عن فاتحة قصيرة فيها يحمد رب العالمين « الذي لما توحد بالأزل والأبد وتفرد بالدوام والسرمد جعل البقاء في الدنيا علة الفناء والسلامة والصحة داعية الآفات والأدواء » ، كل هذا — في لهجة فلسفية — يوضح بأن خوف الإنسان من الفناء يدفعه للتمسك أكثر بالحياة الدنيا وتلهفه على طلب السلامة مهما كلف الأمر مع تأييد بعزم وثبات أمر محاربة الأسقام والآلام والطريق لاستعادة العافية ولكن هذا لايكون إلا بذاك وأما السعادة فهو رهين القبول والرضى بحقيقة هذا التضاد في الحالتين .

ويشير البيروني إلى أهمية قبول قضاء الله وقدره الذي « قسم الأرزاق ووفق الآجال وصير سببها الإشاحة في الأعمال » ، مؤكداً ضرورة الجد والاجتهاد لنيل المراد . ثم يتحول المؤلف للإشارة إلى ظاهرة طبيعية هامة من عمل الخالق الذي « سخر الشمس والقمر دائبين على رفع الماء إلى السحاب حتى إذا أقلت الثقال ساقتها الرياح إلى ميت التراب وأنزلت إلى الأرض مـــاء مباركاً فأخرجت به خيراً متداركاً متاعاً للأنام والأنعام إلى أن يعود بحريته إلى البحار والاستقرار » موضحاً بذلك ما للقمر والشمس من تأثير

---

١ — كان أبو زيد حنين بن إسحق العبادي (٨٠٩ — ٨٧٣م) ، وعلي بن العباس المجوسي (ت ٩٩٤م) وغيرهما بعدهما قد ذكرا حول ثمانية رؤوس ينبغي أن تعلم قبل قراءة كل كتاب كغرضه ومنفعته وسمعته وجهة تعليمه ومرتبته واسم الواضع وصحة وقسمة الكتاب . وقد تبع نصحهم كثير من مؤلفي هذه الحقبة انظر **كامل الصناعة الطبية** للمجوسي ، طبع بولاق ج ١ : ٩ — ١٢ ، **والخطط المقريزية**، بولاق ج ١ : ٣ ، **والمسائل في الطب للمتعلمين** لحنين بن إسحق العبادي ، تحقيق محمد أبو ريان ومرسي عرب وجلال موسى ، دار الجامعة المصرية ، ١٩٧٨ .

في تبخر المياه وتكون السحب وتراكمها في الجو ثم نزول الأمطار واستقبالها مما يؤول إلى ارتواء الأرض المتلهفة العطشى وإعطائها الخصب والحياة فتزهر البرية وتبتهج وتسقى الأرض وتكتسي المراعي فيفرح قلب الإنسان بجود النبات والحيوان فيعود النمو والازدهار للبرية بأسرها ثم تعود زيادة المـاء مرة أخرى إلى البحار والأنهار من حيث جاءت أولاً وهلم دواليك . « ويعلم (الله) مايلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها » وفي ذلك إشارة إلى مافي باطن الأرض من خير وكنوز من أحجار كريمة ومعادن تخرج بالكشف والحرث والتعدين والزرع وما تهبه السماء من ريح وشمس ومطر ومن جاذبية وإشعاع ودفء لازدهار المسكونة وظهورها في حالة جديدة قشيبة فنرى أنه حتى في هذه الافتتاحية المقتضبة حقاً إشارة واضحة إلى الجواهر والفلزات المخزونة والمدخرة في باطن الأرض رهينة الكشف لنفع الإنسان[1] .

ويستغرب القارئ أن يرى مصادر هذا الكتاب قليلة جداً ومحصورة لأن المؤلف يذكر اسم كاتبين فقط نقل عنهما إذ يقول : « ولم يقع إلي من هذا الفن غير كتاب أبي يوسف يعقوب بن إسحق الكندي **في الجواهر والأشباه** وقد اقترع فيها عذرته وأظهر ذروته كاختراع البدائع في كل ماوصلت يده من سائر الفنون فهو إمام المجتهدين وأسوة الباقين[2] . ثم مقالة لنصر بن يعقوب الدينوري الكاتب عملها بالفارسية لمن لم يهتد

---

١ – **كتاب الجماهر** ، انظر طبعة ١٩٣٦م ، ص٢ ، وأيضاً ايلهارد فيديمان ، حول حركات الشمس والقمر ، **مجلة الإسلام** ، ج٤ (١٩١٣) ص٥ – ١٣ ، وفاضل الطائي ، «مع البيروني في كتابه **الجماهر في معرفة الجواهر** ، **مجلة المجمع العلمي العراقي** ، ج ٢٤ – ٢٥ (١٩٧٤م) ص ٥٢ – ٥٨ ، ومحمد جمال فندي وإمام إبراهيم أحمد ، **البيروني** ، دار الكاتب العربي ، ١٩٦٨ .

٢ – لقد استفاد البيروني مما كتبه فيلسوف العرب يعقوب بن إسحق بن الصباح الكندي (ت حوالي سنة ٨٧١م في العاصمة العباسية) حول خواص الجواهر ونعوت الأحجار ووصفها ولكنني شخصياً لم أجد أية نسخ مخطوطة بعد للتأكد وللتعريف بالكندي وأعماله في هذا الباب ، انظر **الكندي فيلسوف العرب الأول** لمحمد كاظم الطريحي ، بغداد ، مكتبة المعارف ، ١٩٦٢م ، وفؤاد سيد ، **فهرس المخطوطات المصورة** ، القاهرة ، معهد المخطوطات العربية ، ١٩٦٣ م ، ص ٢ – ٣ ، والأب ج . مكارثي ، **التصانيف المنسوبة إلى فيلسوف العرب** ، بغداد ، ١٩٦٣ ،

See also S. Hamarneh, «Al-Kindī, a ninth-century philosopher, physician and scholar,» *Medical History*, 9 (1965), pp. 328-342; Fuat Sezgin, *Geschichte des arabischen Schrifttums*, vol. 3, Leiden, Brill, 1970, pp. 244-47; and J. Jolivet, and R. Rashed, «Al-Kindī,» *D. S. B. Supplement*, vol. 15 (1978), pp. 261-67.

ويذكر ابن النديم في **الفهرست** (طبعة القاهرة ، ١٩٢٩م) ص ٣٧١ – ٧٩ رسالتين للكندي في أنواع الجواهر الثمينة وفي أنواع الحجارة المعدنية (الفلزات) .

لغيرها وهو تابع للكندي في أكثرها وسأجتهد في أن لايشذ عني شيء ممـــا في مقالتيهما مع مسموع لي من غيرهما » . فالبيروني إذاً يشير إلى أنه استفاد كثيراً من كتاب الكندي المذكور أعلاه أولاً ، وقليلاً من مقالة الدينوري بالإضافة إلى ماكان قد سمعه وخبره البيروني نفسه من متعاطي مهنة العمل والاحتراف والتجارة في الجواهر وأشباهها مع أنه يشك في ثقتهم وينتقد ساخراً من نزاهتهم وصدق نيتهم فيما يعملون ويقولون ، « وإن كانت طبقة الجوهريين في أخبارهم المتداولة بينهم غير بعيدة عن طبقة القناص والبأزياريين (صيادي الجوارح وأنواع الطير) في أكاذيبهم وكبائرهم التي لو انفطرت السموات والأرض لشيء غير أمر الله لكانته . ولنا ببطليموس أسوة في تألمه من تخريصات التجار الذين لم يكن يجد بداً من الاستماع منهم لتصحيح أطوال البلاد وعروضها من أخبارهم بالمسافات والعلامات » .

لذلك لابد أن البيروني قد اعتمد في الكثير من المعلومات التي قدّمها في كتابه حول الجواهر على مشاهداته الشخصية وتجاربه واختباراته وتقييم الأمور التي سمعها ونقلها حسب مارآه فتكون أكثر قبولاً وواقعية ونقدر أن نتحقق صدق هذا من الأفكار الأصلية الهامة النيرة والصبر والنظريات التي احتواها كتابه هذا[1] .

فصل ١ : يقدم لنا هنا البيروني بحثاً ذا أهمية قصوى في تاريخ طريقة نمو النبات والحيوان وتطور هذه الطريقة وما تتميز به كل من هاتين المملكتين الطبيعيتين وكيف بذلك أزاح لنا الله الغطاء لمعرفة « علل جميع المخلوقات بكنه حاجاتها وبقدر ، لا إسراف فيه ولا تقتير ، وجعل النمو الذي هو زيادة في جميع أقطار القابلي له طارئة عليه ومستحيلة إليه سبباً هو الاغتذاء وصير النبات مكتفياً بالقليل من الغذاء ماسكاً له ، لاينهضم بسرعة ، فاقتنع وثبت مكانه يأتيه رزقه من كل مكان فيجذبه بعروق دقاق في دقة الماء سارياً إلى جرثومته » . فالغذاء يأتي إلى النبات وهو في مكانه ثابت فتجتذبه الجذور الممتدة في عمق الأرض وتهضمه ثم كيفية تغذي النبات بمرور النسغ ببطء من الجذور صاعداً إلى فوق

---

١ – البيروني ، **في الجواهر** ، طبعة ١٩٣٦م ص ٣١ – ٣٢ ، ٤٠٩ ونسخة هارفارد ص ٤٤ – ٤٦ ، وإننا نجد في الواقع اقتباسات وإشارات إلى كتب ومؤلفين أخر كارسطوطاليس وجالينوس وجابر بن حيان والرازي وأحمد بن علي وابن الحسن الترنجي **والمسالك** للجيهاني **والممالك والمسالك** للمسعودي **ومنافع الأحجار** لعطارد بن محمد **والموازنة** لأبي القاسم الآمدي **والنبات** لأبي حنيفة الدينوري وأسفار مختلفة من التوراة تبحث في هذا المجال .

من خلال الجذع والأغصان فإلى أجزائه العالية مقدّما نظرية طريفة هامة إذ فيها يبين بوضوح فيقول : « وترفع سخونة الجو بالشمس من أغصانه رطوباته » الأمر الذي من أجله يحدث فراغ والذي لابد من ملئه « فينجذب ماحصل (من الجذور) في الأسافل إلى أعالي أفنانه وينمو به » . وغاية هذا التطور والنمو ليبلغ ذروته لاستمرار الجنس « ثم يجري إلى ماخلق له بالإيراق والإزهار والإثمار » .(١)

وبعد ذلك يشير البيروني إلى الفارق الواقع بين طريقة نمو النباتات وبين كيفية تغذي الحيوان وسرعة الانهضام وأهميته ، وضرورة تنقل الحيوان بآلات الحركة لطلبه واحتياجه « إلى القضم والخضم » وللتقوت من هنا وهناك . من أجل ذلك أُعطي الحيوان بالطبيعة موهبة الحواس الخمسة ليميز بها بين مايضر وما ينفع وبين الممكن وغير الممكن معبراً عنها في النقاط التالية :

١ — « من بصر يدرك به المرغوب فيه من بعيد فيسرع إلى اقتنائه والمرهوب حتى يهرب منه ويستعد لاجتنابه واتقائه » .

٢ — « ومن سمع يدرك به الأصوات من حيث لايدركها البصر فيتأهب لها » .

٣ — « ومن شمّ يدل عليها من خواص فيها » فيقتفيها أو يتقيها .

٤ — ومن ذوق يظهر له به الموافق من الغذاء وغير الموافق منه فينجو بذلك مما هو سام ويبتعد عما هو تافه أو غير مستحب .

٥ — وأخيراً من لمس يميز به بين الحار والبارد والرطب واليابس والصلب واللدن والخشن واللين « فينتظم بها في الدنيا معاشه ويدوم انتعاشه ، » وهي ميزة للحيوان فوق

---

١٤ — البيروني قدم آراء أصيلة في العلوم الطبيعية ونظرات صائبة في مظاهر وطبائع الممالك الطبيعية الثلاثة كما نجد هنا في نظريته في تغذي النبات وصعود النسغ من جذوره إلى بقية أجزائه العالية . يان ولكزنسكي في استنتاجاته حول نظريات البيروني في انتخاب الأنواع وفكرة التطور :

Jan Z. Wilczynski,« On the presumed Darwinism of Alberuni, eight hundred years before Darwinism» *Isis*, 50 (1959), pp. 459–466.

يعتبر البيروني بأنها أفكار عابرة غير مقصودة ، مع أن هذا المفكر المسلم العبقري حاول أن يضع أعظم آرائه أصالة وجدية بهذا الأسلوب ، كما نجد في مقدمته **لكتاب الجواهر** وذلك حتى لايثير ضجة حوله ممن لايقيمون وزناً للتفكير الحر والذين يحاربون التجديد والأصالة في البحث العلمي والملاحظات الشخصية المتحررة . وهنا مثلاً نجد تعليقاً هاماً بالنسبة لتاريخ علم النبات يثبت مقدرة البيروني في العلوم الطبيعية . انظر **في تحقيق معالم الهند** ، حيدر آباد ، العثمانية ، المجلدان ١٩٥٧ — ١٩٥٨م وتحقيق ادورد ساخو ، لندن ، ١٨٨٥م (وطبع ١٩١٠م) ، ج١ : ص ٤٠٠ بالإنكليزية (ص ٢٠٠ النص العربي) .

النبات ، أحسن المؤلف توضيحها وتبيانها بدقة وحذاقة وصدق[1] .

ترويحة ١ : يتابع البيروني في الترويحة الأولى حديثه عن الحواس التي تنفعل بمحسوساتها أعضاء البدن الحيواني وأفعاله وقواه فيعطينا أفكاراً أخرى هامة وأصيلة بالاستمرار في تعريف الحواس وكيفية أدائها أفعالها بالنسبة لعلمي التشريح ووظائف الأعضاء فيضيف قائـــلاً :

« فالبصر محسوسه النور الحامل في الهواء ألوان الأجسام خاصة وإن حمل أيضاً غيرها من الأشكال والهيئات حتى يعرف بها كمية المعدودات (والمرئيات إلى الشبكية فالعصب البصري فإلى الدماغ للحصول على الرؤية الكاملة) .

وأما السمع فمحسوسه الأصوات ، والهواء حاملها إليه، والشمّ محسوسه الروائح، والهواء يوصل حواملها إلى الخياشيم إذا انفصلت من المشموم كانفصال البخار من الماء باختلاط أجزائه المتبددة في الهواء .

والذوق محسوسه الطعوم والرطوبة تحملها وتوصلها إلى الذائق وتولجها في خلله . فإن آلاته من اللسان والحنك واللهوات متى كانت يابسة لم تحس بشيء من الطعوم وهذه الحواس الأربع متفرقة في البدن مختصة بأماكن لها لاتعدوها » .[2] ونستطيع في عصرنا الحاضر أن نشير لتلك الأماكن المعينة التي هي المراكز الأساسية لهذه الحواس في الدماغ وخلافـــه .

---

١ – يعطينا البيروني تحليلا علمياً لأحوال الحواس الخمس ووظائفها ونفعها للجسم ككل وقد تكلم في ذلك علماء الإغريق مثل ثيوفراستس وكتب عنه الكثيرون في العصر العربي الإسلامي كالمجوسي الآنف الذكر وغيره ، انظر عبد اللطيف موفق الدين البغدادي ، **مقالتان في الحواس ومسائل طبيعية** دراسة وتحقيق بقلم بول غليونجي وسعيد عبده ، الكويت ، وزارة الإعلام ، ١٩٧٢م في ٢٠٥ ص .

٢ – يوضح البيروني كمعاصره ابن الهيثم أن البصر يحدث بضوء ترسله الأجسام في الهواء إلى العين فترى الأشكال والهيئات وكيف أن الهواء أيضاً يحمل الأصوات إلى الآذان وأن الهواء يحمل كذلك حوامل الروائح ويوصلها إلى الأنف حيث تنفصل مثل انفصال البخار عن الماء الذالي . وما أصدق قوله إن الرطوبة من لعاب الفم هي التي توصل طعم ما نأكل أو نشرب لحاسة الذوق من مسام في فجوات الفم واللسان واللهاة وإنه بدون هذه الرطوبة لاتحس الطعوم . وجدير بالذكر أن المؤلف يشير إلى مراكز لهذه الحواس وإن تفرقت مواضعها في البدن ويستنتج أنه كان يشير إلى مراكز في الدماغ لبعض الحواس كالبصر والسمع . انظر عبد اللطيف البغدادي ، **مقالتان في الحواس** ، تحقيق غليونجي ، ١٩٧٢م ، ص ٧٧ – ٨٨ .

والبيروني من ثم يتطرق إلى الحاسة الخامسة والأخيرة والتي تتميز عن الأربع السابقة فيقول : « وأما خامسها ألا وهي حاسة اللمس فإنها بعكس الأربع الأخرى عمت جميع البدن في أعضائه وفي آلات سائر حواسه ولم تنفرد بها دونها . وأول مانلاقي من ذلك محسوساته بواسطة الكيفيات التي هي في ظاهر البدن ولهذا كان الجلد بحس اللمس أولى وإليه أسبق ثم ماوراءه أولاً فأولا وطبقة طبقة بحسب اللـين واللطف إلى أن يبلغ الأغلظ الأكثف من دعائم البدن فيزول به حس اللمس عند العظام» . فواضح برأي المؤلف إذاً أن حاسة اللمس أقوى ماتكون في سطح الجلد ثم بعد ذلك تضعف تدريجياً اتجاهاً إلى العمق حتى وصول العظام حيث حاسة اللمس تكاد تكون معدومة[1] .

ترويحة ٢ : ينتقل البيروني هنا للحديث حول تفوق العنصر البشري على سائر المخلوقات لأن الله منحه شيئاً آخر بالإضافة إلى الحواس الحيوانية الخمس وهي « بمـا شرف به من قوة العقل » الذي تسلط به على المخلوقات وقدر على سياسة الأرض وتعميرها وتفهم أسرار الكون وتدبيره (أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون) سورة يس ٧٠ — ٧٢ .

ولولا هذا الإحسان الإلهي لمـا استطاع الإنسان مقاومة الحيوانات وهو بالنسبة لها في القوة الجسمانية أضعف من الكثير منها ولايملك ماتملكه «من آلات الدفاع والنزاع» . والبيروني هنا أيضاً يقتبس ماجاء في سورة الزخرف : ١٢ (سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين) . فنعمة العقل والتمييز للتسلط على سائر المخلوقات ماهي إلا إكرام سماوي والتي يأمل المرء من خلالها خير الجزاء بعد المنية . ويضيف المؤلف قوله : « إذ الرغائب بالمتاعب ونيل البر بالإنفاق من الحبائب » إذ لابد من « احتمال قرص النحل حتى يجتنى العسل » وليكن العطاء مما يختزنه الإنسان لعمل الخير والإحسان للآخرين أجراً واحتسابا .

ويضيف المؤلف وهنا أيضاً حول أهمية ذكر حاستي السمع والبصر حيث « جعلتا لهما مراقي من المحسوسات إلى المعقولات . أما البصر فللاعتبار بما يشاهد آثار الحكمة

---

١ — في **الجواهر** طبعة ١٩٣٦م ص ٤ ، يؤكد البيروني بأن العظام (وليس الطعام كما في النص خطأ) لاحس لها في حين يوجد حس في الأسنان بسبب وجود عروق دموية فيها وأن الجلد أكثر الأعضاء حساً وتعرضاً للإحساس . أبو بكر الرازي، **الحاوي**، مطبعة العثمانية ، حيدر آباد — الهند ، (١٩٥٥م) ص ٣ — ٤ .

في المخلوقات والاستدلال على (عظمة) الصانع من المصنوعات » ويستشهد بسورة فصلت : ٥٢ (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنه الحق)[١] . هذا مايختص في أمر البصر « وأما السمع فليسمع به كلام الله بأوامره ونواهيه ويعتصم فيها بحبله فيصل إلى جواره » ويستشهد بقول أعشى بني أبي ربيعة إذ يقول :

كأنّ فؤادي بين جنبي عالم بما أبصرت عيني وما سمعت أذني[٢]

فالبيروني إذاً يؤكد بأن هناك مصدراً أكيداً للحصول على العلم ألا وهو هاتان الحاستان ، البصر والسمع ويضيف إليهما الفؤاد (وليس الدماغ) مشيراً إلى آية من سورة الإسراء : ١٠٤ (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا) . موضحاً بأنه من فضلة القلب يتكلم اللسان مقتبساً قول أبي تمام :

ومما قالت الحكماء طرا لسان المرء من خدم الفؤاد[٣]

لأن السمع والبصر حسب رأي البيروني وبأسلوبه البليغ الرفيع يعتبرهما «آلتا الرقيب » بهما يكتشف المرء نفسه وبيئته ويرى ماهو خفي عنه غير ظاهر له ولايعرف أبداً حق قدرهما إلا عند فقدهما لكل مايخصهما في الحياة من متعة وسلوى وجمال وأنس .

أما الحواس الأخرى فإنها برأي المؤلف أليق بالبدن منها بالنفس من مذاق وتحسس واستنشاق ماحولها . وهي أقرب إلى الحيوانية الجسدية منها إلى الإنسانية الفضلى بالرغم

---

١ – يقتبس المؤلف أيات من القرآن الكريم حول إدراك عظمة الخالق من مصنوعاته،وهذا يتفق مع **سفر المزامير** في الآية ١٩ : ١ « السموات تحدث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه» وكذا **رسالة رومية** ١ : ٢ « لان امور الله غير المنظورة ترى منذ خلق العالم مدركة بالمصنوعات قدرته السرمدية ولاهوته » انظر كمال اليازجي **معالم الفكر العربي في العصر الوسيط** ، طبعة رابعة منقحة ، بيروت، ١٩٦٦ ص ، ٣٢٢ – ٣٣٠ .

٢ – أعشى بني أبي ربيعة بن خارجة أبو المغيرة وينتمي إلى قبيلة بني شيبان كان معاصراً لأعشى تغلب وتوفي في عام ١٠٠ هـ / ٧١٨ م ، انظر لويس شيخو **شعراء النصرانية** ، طبعة ثانية ، ج ٢ ، بيروت ، دار المشرق ، ١٩٦٧ م ، ص ١٢٩ – ١٣٥ ، وفؤاد سزكين ، **تاريخ المخطوطات العربية** ، ج٢ ، ١٩٧٥م، ص ٣٣٠ (بالألمانية) .

٣ – أبو تمام هو حبيب بن أوس بن الحرث بن قيس الطائي (١٧٠ – ٢٢٨ هـ / ٧٨٨ – ٨٤٥ م) شاعر عباسي سوري الأصل عاش بدمشق وحمص وبغداد والقاهرة وفارس وكان قوي الحافظة بديع الأسلوب طبع ديوانه في بيروت والقاهرة أكثر من مرة مثلا ، المطبعة الأدبية ، بيروت (١٨٨٩) وكذلك ديوان الحماسة له . انظر سزكين ، ٢ : ٥٥١ – ٥٥٨ ، وشيخو ، ٢ : ٢٥٦ – ٢٦٠ ، ويوسف إليان سركيس ، **معجم المطبوعات العربية والمعربة** ، القاهرة ، ج ١ : ٢٩٦ – ٧ .

من أنها مبدئياً تتطور وترقى وتتهذب من منطلق أوضاع الإنسان الفكرية وأحلامه وتفاعله واستنباطاته حتى تبلغ بهذه المشاعر والأحاسيس إلى أقصى غايتها البشرية النافعة[1] .

ترويحة ٣ : هنا يتكلم البيروني عن الاستئناس كنتيجة إلى التجانس مقتبساً المثل القائل « إن الشكل إلى الشكل ينزع والطير مع ألافها تقع » أو كالقول الشائع في يومنا هذا « إن الطيور على أشكالها تقع » . والمؤلف مثلاً يشبه كيف أن الأخرس ينجذب ويستأنس بالأخرس نظيره يخاطبه بالإشارات التي يفهمها كل منهما أو بالإيماء بالأعضاء مقتبساً سورة الروم : ٢٠ (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) ومن هنا يستدل على إمكانية ودواعي التقارب بين الناس للتعارف والتآخي من جهة واحدة والسعي في طلب الأمان من الشر والخطر والتفرق والدمار من جهة أخرى حتى يتضاعف الأنس ويزول النفار بين الشعوب ويعتبر المؤلف أن فضيلة الاستئناس هذا إن هي إلا أسباب تدفع بالناس إلى التعاون والتقارب الواحد من الآخر والاجتماع لتأسيس القرى ونشوء المدن والدساكر وتطورها[2] .

ترويحة ٤ : ومع كون الإنسان اجتماعياً بطبعه إلا أن المؤلف هنا يعالج أمور الناس بالنسبة لبنية أبدانهم وجبلتهم الجسمانية وماتركب منه من أمشاج وأخلاط متضادة وشهوات متعارضة وأمزجة مختلفة فتتباين نتيجة لذلك أخلاقهم وطبائعهم وأهوائهم حتى أن يقهر أحدهم الآخر ويظلمه ويغمط حقه فينتج عن ذلك أن الشخص المظلوم يصبح دائم النزوح لإزالة القهر عنه فينشأ عنده حب الافتراق والابتعاد طالباً للهجرة إلى أوطان أخرى وحتى مع هذا نجده في غربته عرضة للأخطار الخارجية ومداهمة البلايا والمحن أضف إلى ذلك ضعفه وعجزه مما يجعل المرء دوماً في حالة القلق وفي حاجة للعون والإسعاف والأمان ومن هنا جاءت رغبته الملحة والأكيدة ينشد حياة الوئام والتمدن والسعي للتجمع في القرى والمدن العامرة ليقرب من أخيه الإنسان ويستقر .

---

١ – تدل هذه المناقشات على إنسانية البيروني وسمو نفسه ، فحواس الشم والذوق واللمس برأيه تخدم نمو الجسد ولذاته ورغائبه لذا بالإمكان السمو بها إلى درجات عالية ومثالية بواسطة ضبط النفس وقمع رغبات الجسد وبالتفكير بالأمور الجليلة الطاهرة والعيشة النقية ، وكان أبو بكر الرازي في كتابه **الطب الروحاني** ينزع هذه النزعة ذاتها ،حقق الكتاب وله ترجمة بالإنكليزية أيضاً عام ١٩٥٠ م .

٢ – يرى البيروني ميل الإنسان لإنشاء مجتمع كأمر طبيعي تمليه الغريزة والحاجة للأمن وتوفير أسباب العيش المختلفة،ومن قبل تكلم ابن خلدون في مقدمته عن العمران والنظم الاجتماعية والاقتصاد .

وفي تجمع الناس ضمن المدن نجد أنهم لو تساووا بالاختبار والهمم ، حسب رأي المؤلف ، لضاعت عليهم منافع كثيرة وأدى تساويهم في نهاية الأمر إلى هلاكهم جميعاً . فلا بد إذاً من اختلاف المقاصد والإرادات والمواهب والكفاءات وبذلك تتعدد أنواع الحرف والصناعات وتزداد المآرب وتتعقد الخدمات ويصير الإنسان في حاجة لأخيه الإنسان على المستويات والكفاءات أو أن ذلك يؤول به لطلب واستخدام لمقايضة أو مقابل سلعة أو أجرة يتفق عليها ويتقاضاها الواحد من الآخر إما لحاجته الضرورية أو لاستغنائه عنه كأن تقدم سكة معينة أو أثمان عامة وعملة تقدر بدل خدمات معينة،« فاختاروا لها ماراق منظره ورواؤه وعز وجوده وطال بقاؤه ، » من أنواع العملات والمسكوكات والمعادن وحتى الجواهر الثمينة التي كثر انتشارها وازداد وتأيد تداولها بين الناس في المبايعات ولأن استخدامها يصبح سبباً لبقائها وندرتها وعظم قيمتها . ومن أجل ذلك نرى أن المؤلف يبحث في فلسفة قيام العملات والسكة بأنواعها وتاريخها وما آل إليه الأمر من انقياد الناس لتعظيمها وتقييمها « بالتوحيد والتصغير بالتجزئة والتبديد والتختم بالتنقيش والتصوير متردداً بين صنوف الهيئات والصور مع ثبات هيولاه ومادته » من نفيس الجواهر والعملات وما إليها[1] .

إن هذه الجواهر المتداولة بين الناس والمخزونة في باطن الأرض وما هو مستور منها عن الأعين إن هي إلا ودائع صالحة أعدها الله تعالى مزودة بالآلات التي بها أزاح علل الخلق ومجريات الكون وتقييم آثارها وقد هدى الإنسان بالعقل المنبه إلى الآيات الكريمة بواسطة الرسل والأنبياء المرشدين إلى صلاح العقبى وقد وكل الأمر في الورى للملوك خلفائهم ليعملوا على نشر العدل وإعلاء الحق لما هو في صالح الناس جميعاً ورأفة

---

١ – لقد عالج البيروني تاريخ استعمال النقود والمسكوكات وصناعة الاختام وأسباب انتشارها وأوزانها وأشكالها وندرة الأحجار الكريمة والمقايضة بها وأثمانها معادن الذهب والسكة في الإسلام والمعاملات التجارية . ثم إن الدكتور محمد يحيى الهاشمي في « نظريات الاقتصاد عند البيروني » في **مجلة المجمع العلمي العربي** ، دمشق ، مطبعة ابن زيدون ، ١٩٣٧ م ، ج ١٥ ، ص ٤٥٦ – ٤٦٥ ، وفي مجلد **العالم أبو ريحان البيروني** ، أسبوع العلم الرابع عشر ، دمشق ، مطبعة الجامعة ، ١٩٧٤ م ، ص ١٨١ – ١٨٩ ، يعتبر البيروني رائداً في علم الاقتصاد وإن «الأزمات مهما تراءت لنا بمظهر مادي هي في الحقيقة أزمة روحية » انظر **السكة في الإسلام** لعبد الرحمن محمد ، القاهرة ، مطبعة المكتبة المصرية ، ١٩٥٧ م ، وأيضاً **صبح الأعشى** ، لأبي العباس أحمد القلقشندي ، القاهرة، ٣ : ٤٣٦ – ٤١ ، ٤٦١ – ٦٣ وقد اكتشف هذه النظرية الاقتصادية في مقدمة البيروني في شرحها .

M. J. Haschmi, *Die Quellen des Steinbuches des Beruni*, an inaugural dissertation (Ph. D.), Bonn University, 1935, pp. 42–59.

بهم وإحسانا إليهم ومنفعة لهم قد سبق مخبأ لهم قبل خلقه إياهم جميعاً الموزونات في أرحام الأرضين تحت الرواسي الشامخات للانتفاع بها في الاجتلاب والدفاع الصيانة والاعتدال كما جاء في سورة الحجر : ١٨ (والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون)[١] .

ويعتقد البيروني أن الترتيب الإلهي قَدَّر بأن تكون مصالح الناس ومعاملاتهم التجارية الاقتصادية والخدمات التي يقوم بها أحدهم تجاه الآخر يجب أن تكون على حساب التقييد والمعاملة بالفضة والذهب وتقدير قيمها نقدياً ومعنوياً وعلى مقتضاه إذ هو أيضاً هدى الإنسان لاستخراجها من معادنها التي اختزنت في أعماق الأرض ألوف السنين وقد منح هؤلاء الملوك الخلفاء السلطة والرياسة ووكل لهم السياسة والأمر والنهي لاستخراج هذه المعادن الثمينة وليصنعوا منها العملة والنقود ويحفظوها من تمويه الخونة الخادعين وتزييفهم أولئك الذين يروجون أشباه الفضة والذهب المغايرة لهما في الجودة والنقاء والدقة ويهذبونهما عن الأدناس والغش وذلك بالسّبك الأصيل والطبع في السكة المضمونة لإحقاق الحق وإزهاق الباطل وتأمين مصالح العباد وللحيلولة دون ترويج ماهو مغشوش مزيف من معدنهما ، « وهذا وأمثاله هو المحوج لولي الرياسة إلى مراعاة شروط السياسة ليستحقوا اسم الخلافة في الخلق وسمة الظل في الأرض عند التقبل بأفعاله سبحانه في التعديل بين الرفيع والوضيع والتسوية بين الشريف والضعيف من خلائقه ووفق الله للخير كل مستوثق به » .[٢]

ترويحة ٥ : يتابع البيروني في حديثه هنا حول أهمية الذهب والفضة في اقتصاد

---

١ – اعتبر البيروني التطور ونظرية النمو ضمن إطار إيمانه بالله كخالق العالمين ورأى أن كل ماخلقه الله كان حسناً وكاملاً ومع تمجيده لقوة العقل والمنطق إلا أنه كمؤمن رأى أن أهمية العقل أولا هي في فهم كلمة الحق والإصغاء لقول الأنبياء والمرسلين ، وبقي أميناً في اعتقاده بشرعية الحكم للخلفاء العباسين مدافعاً عن كيانهم ضد المقاومين والفاتنين عليهم معترفاً بولائه لهم حتى الرمق الأخير من حياته ، فهم الأصل ولهم الاختيار والشرع ليجروا عدلا كأمراء المؤمنين وقد منحهم الله حتى الكنوز في باطن الأرض وتحت الجبال الثوابت ومن كل بمقدار وبكل حكمة وفطنة . انظر جرجي زيدان ، **تاريخ التمدن الإسلامي** ، القاهرة، ج١ : ص ١٤٠ – ١٤٦ .

٢ – كما كانت الأدوية والعطور والأطايب تغش بما هو دون من مفردات الطب كذلك كانت الجواهر تغش بالنحاس وغيره . انظر أحمد القلقشندي، **صبح الأعشى** ، ج٢ : ٩٧ – ١١٨ : وحول المعاملات بالسكة انظر مقالة صالح الحمارنة ، « العملة العربية الإسلامية في بلاد شمال وشرقي أوربا ودلالتها في العلاقات التجارية » ، **دراسات** (عمان ، الجامعة الأردنية) ، ج٢ (أيار ١٩٧٥م) ص ٣٩ – ٥٧ .

الشعوب واتجاهاتها السياسية وحياتها الاجتماعية وما يتبع ذلك من أمر الجشع البشري وتكالب الناس على المادية لتعلقهم بهدبها فيقول ، « لما سهل الله على الناس تكاليف الحياة وتصاريف المعاش بالصفراء والبيضاء (يعني الذهب والفضة) انطوت الأفئدة على حبهما ومالت القلوب إليهما كميلهما في الأيدي من يد واحدة إلى أخرى واشتداد الحرص والشح على ادخارهما والطمع والاستكثار منهما وجل محلهما من الشرف والأبّهة وضعاً لاطبعاً واصطلاحاً فيما بين الناس لاشرعاً بل اتفاقاً لأنهما ماهما إلا حجران لايشبعان بذاتهما من جوع ولايرويان من صدى ولايدفعان بأساً ولايقيان من أذى » ، وما أصدق هذا منذ زمن المؤلف وحتى وقتنا الحاضر أو أكثر .

ويتابع البيروني المنطق ذاته فيقول : « وكل مالم ينتفع به من غذاء يقيم الشخص ويبقي النوع ، ومن ملبوس يدفع بأس البائس ويقي أذى الحر والبرد ومن كن (مسكن) يعين على ذلك ويقبض يد الشر فليس بمحمود طبعا » . فالبيروني يؤكد الناحية العملية في المجتمع البشري فيرى أن الذهب والفضة بحد ذاتهما ليس فيهما غنى في قضاء حاجة من مأكل أو ملبس أو مأوى وإنما هما ممدوحان بالعرض وضعاً إذ بهما يمكن الحصول على سد حاجات الناس وتأمين أعوازهم لذلك هم سموا المال خيراً وكذا من يجود بالدراهم فإنه جائد بجميع الخير لأنه وإن لم يكن ذلك في طبعه فإنما يكون في ضمنه لاحتوائه على المناهج والقدرة في نيل المآرب والوصول إلى ميناء السلامة وغبطة العيش[1] .

ولإعطاء مثل من الأمثال حول هذا الموضوع مايرويه المؤلف في قالب قصصي كالآتي :

« إن قوما أرست بهم السفينة في جزيرة منعزلة عن الطرق التجارية البحرية الهامة ، فخطر على بال أحدهم إذ أراد شراء حاجة عرضت له (فانقل إنها من مأكل أو ملبس) وبمقابل ذلك فإنه دفع ديناراً (على سبيل المثال) كثمن جيد لرجل من أهل تلك الجزيرة

---

١ - يوضح البيروني أن الذهب والفضة والأعلاق النفيسة الأخرى هي هبات إلهية أعطيت لسد أعواز الناس للمتاجرة ولكن الإنسان مفطور على الطمع ومحبة المال التي هي أصل لكل الشرور فزاغ من غباوته عن الإيمان وطعن نفسه بأوجاع كثيرة ، مع ذلك يعظم الناس ويبجلون مالكها حتى تعاطيها باليد له جاذبية خاصة فكنزها الكثيرون للمتعة وطلباً في تأمين عيش رغيد . أما قيمة المال الحقيقية فهي وضع لاطبع ، لم تمدح بالشرع بل اصطلح عليها في المعاملات التجارية فهي لاتروي من ظمأ ولا تدفع أذى إنما «دعي المال خيراً» لأن من يجود به يؤمن حاجات الناس الضرورية مع أن هذا ليس من طبعه ، في **الجواهر** ، طبعة ١٩٣٦م ص ٧ – ٩ ، ويحيى الهاشمي « نظريات الاقتصاد » ص ١٨٦ – ١٨٩ .

وما كان من أمر هذا الرجل (من سكان تلك الجزيرة) أن أخذ هذا الدينار يقلبه ويشمه ويذوقه فلما لم يؤثر منه شيئاً في هذه الحواس أثر نفع أو لذة ردّه إليه إذ لم يستجز دفع ماينتفع به بما لانفع فيه » في عرفه وعادته . هكذا فإن العبرة في هذه المثال أو تلك القصة أن المقايضة الصحيحة هي التي ينتفع منها لكلا الطرفين وأن المعاملة الطبيعية المباشرة بين النظراء هي التي تتم من حيث المبدأ في إبرام الصفقات التجارية المتبادلة والتي تصبح حقيقة وأسساً ومنبعاً لنظام المعيشة ولمداولاته بين الناس في الحضارات الإنسانية وبين الشعوب الراقية المتحضّرة والتي يمكن الاستفادة منها في النظم والخدمات الإدارية العصرية[1] .

أما المعاملة الوضعية المحاية فقد جاءت على الأعم حسبما ورد ذكره من الشعوب المتمدنة الماضية والأمم المعاصرة ، في أمر ماتسمى بالفلزات (وهي كلمة تطلق على جواهر الأرض كلها من معدن وحجارة كريمة) وتعريفها وأهميتها واصطلاحاتها واستعمالاتها . وبسبب انتشارها وشيوعها فقد كانت ومازالت تزدان وتزدهي في أعين البشر حتى شَغَفَتْ بها الأفئدة وصارت متعارفة بين غني أو فقير متداولة بين ذوي الجاه والمتواضعي السمعة ليس من أجل قيمة حقيقية بها ذاتها وإنما بمـــا هو متعارف به مصطلح عليه حتى صارت مرغوبا فيها لدى الجميع ويحلو لهم امتلاكها . وقد أبان القرآن الكريم كيف أنه قد زين للناس صلاح المعيشة بالنساء وقرة العين بالأولاد وقوة القلب وبهجته وميوله باحتكار الأموال وكنز قناطير الذهب والفضة غريزة عزيزة لديهم[2] .

إنه حقا من سخرية القدر ليس في عصر البيروني فحسب بل وحتى في زماننا الحاضر الواقعي أن نرى وجود طبقتين من الناس هما الصعالكة ورجال السلطنة شغلهما الشاغل كمأرب رئيسي في الحياة إنما هو تكديس الأموال بأي شكل ثم إن ظروفهما الخاصة كما يبدو تقودهما إلى مثل هذا التصرف الشاذ وكل من هاتين الطبقتين قد أساء استعمال مالديه

---

١ – لويس معلوف ، **المنجد في اللغة** ، طبعة ١٥ بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٥٦م ص ٦٢٥ ، وانظر علي أحمد الشحات ، **أبو الريحان البيروني** ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٨م ص ١٣٥ – ١٤٥ .

٢ – لقد اقتبس المؤلف الآيات التالية : **سورة الحديد** : ١٩ (اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) ، **ومن سورة آل عمران** : ١٣ (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب) وللتفسير اعتمدنا كتاب الشيخ حسين محمد مخلوف ، **كلمات القرآن تفسير وبيان** ، القاهرة ، البابي الحلبي ، ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م .

من الثراء من ذهب وفضة وذلك بكنزهما بدلا من إنفاقهما ليتسنى تداولهما في أيدي الناس ويتحقق من أجل النفع الأعم والأفضل . ويخيل إلي بان كنز الأموال وحبسها هكذا مسألة تدعو للاستهجان وأمر مخالف لقصد الله تعالى الذي من فضل نعمته وحسن مشيئته سمح باكتشافها واستعمالها وابدال أثمانها لمصالح عباده وخيرهم وقضاء حاجاتهم في المعاملات التجارية المشروعة[1] .

وبطريقة فلسفية مفحمة يوضح البيروني كيف أن الله خلق الجواهر والمعادن النفيسة وبحكمته قد خزنها في باطن الأرض أجيالاً طويلة وأتاح للناس اكتشافها واستخراجها وإعدادها تسهيلاً للمعاملة والمداولة بين جميع الناس وفي كل مرافق الحياة . فأمر اكتنازها إذاً إنما هو مخالف لإرادة الله ومشيئته في مقدرات الناس وغمط لمنته وإحسانه بردها إلى باطن الأرض إلى مثل حالتها الأولى التي كانت فيها قبلا وهذا أمر يتنافى مع غاياته الفضلى وحسن تدبيره في الكون في هذه النظرية الاقتصادية المبدئية والاجتماعية البناءة والتي هي في غاية الأهمية حتى في عصرنا هذا ، حتى أن البيروني يشبه كون خزن الذهب والفضة وحجزها عن التداول مثلا بمفهوم رد الأجنة إلى الأرحام التي فيها تكونت ومنها خرجتْ ماهي إلا رجعة عقيمة وعود يائس لانفع منه ولا بركة فيه ولاسداد .

لذلك يضيف المؤلف مفسراً بقوله إن الذهب والفضة إذا أخرجا من معادنهما الأصلية في جوف الأعماق تصبح آنذاك كالزروع المحصورة في الفلاحة والأنعام المذبوحة لمربي المواشي لايسوغ غير جنيها وأكلها وإنفاقها والاستعاضة منها حيث يهيأ المعدن بأمر ذي ساطان كما تصنع نقود العملة في السكة بعد سبكها وطبعها دراهم وسواها « عينا وورقا (لأجل) ترديده في الأيدي على حسبة تجارة أو إيتاء في حقوقه »[2] .

---

١ – في **سورة التوبة** : ٣٣ نجد أيضاً كشفاً لحالة روحية كئيبة حول أحبار اليهود ورهبان النصارى الذين كانوا يتكالبون على جمع الاموال وكنز الدراهم طامعين في عطايا الفقراء والمساكين مع أنه كان يجدر بهم الإنفاق وتقديم يد العون لهؤلاء الناس (ياأيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) فصاروا بذلك عثرة بدل أن يكونوا بركة انظر **سفر ارميا** ، فصل ٢٣ : ١ – ٤ **وإنجيل متى** ، فصل ٦ : ٢٤ – ٣٥ .

٢ – العين هو الذهب المضروب للمعاملة التجارية وهو النقد المتداول بين الناس والعتيد من المال والعينة هي خيار المال في حين أن الورق (ج أوراق) هي الدراهم المضروبة انظر معلوف، **المنجد في اللغة** . وحول الصعاليك انظر **العصر الجاهلي** لشوقي ضيف ، القاهرة ، دار المعارف ، ط ٥ ، ١٩٧١ م ص ، ٣٧٥ – ٣٨٥ .

ترويحة ٦ : ينتقل المؤلف هنا للحديث في موضوع طريف ذي شقين ألا وهو التعريف بالمروءة والفتوة ومعناهما الحقيقي ضمن النظام والعرف الاجتماعيين . وهنا نقول إن المروءة تقتصر فقط في مفهومها على الرجل في نفسه وذويه وحاله فالمرء مبدئياً لايملك غير نفسه وقنيته وأملاكه لاينازعه فيها أحد فهي لذلك تدفع به لأن يظهر السعة لدى الآخرين ويخفي الضيق على نفسه ما أمكن فيصدق في ذلك القول : « المروءة الظاهرة في الثياب الطاهرة » وهي مايمكن تأويله « بأن لايعمل المرء سراً ما يستحي منه في العلن » ، وأن يكون في ذلك شعاره هو أن نفس الإنسان أقرب قريب منه وأولى ماتقدم في طلبه إنما هو للخير لها أولاً ثم ما هو دان منها وهكذا . أما الفتوة فتتعدى الحدود المرسومة في المروءة وتتخطاها إذ بها يحتمل المرء مغارم الآخرين وسائر المشاق لتأمين إراحة وإسعاد الغير فلا يضنّ بما أحل الله له وحرمه على سواه ليجود به طبعا ، فهو الفتى الذي اشتهر بعدم تمسكه بالمادة وعرف بالحلم والعفو والرزانة والاحتمال صابراً نائلا تعظيم الناس في تواضعه فرقي بذلك إلى أعلى المراتب رغم اعترافه بعدم استحقاقه نائلاً نتيجة لذلك خير الثواب . فهي إذاً « بِشْرٌ مقبول ونائل مبذول وعفاف معروف وأذى مكفوف » . فالمروءة كل هذا من حسن الوفاء وكرم المحتد .

ويروي المؤلف قصة رجل كان يلبس كل يوم أحسن الثياب ويركب أفره الدواب ويسعى في تلبية حاجات الناس وشيكاً فقيل له لتعليل السبب في ذلك فأجاب بأنه قبلاً كان قد انغمس في جميع شهوات الحياة وملاذها من سكر وبطر ومنكر ولكن هذه كلها لم تشبع نفسه بل تركته تعيساً ، وأما الآن فليس أدعى لنفسه من مسرة ولا أكثر متعة وبهجة من رؤية إنسان أنعم إليه وأسعفه فشكره ممتناً عند الإخوان . من أجل هذا فهو في نشوة روحية دائمة وغبطة لاتوصف حتى أن المؤلف يسترسل في توجيه أطيب الثناء في مدح النفس العصامية التي لاتنهمك بمتاع الدنيا وملذاتها وشهواتها فتخسر الآخرة بل ينصرف نحو المنطلق الأفضل بالقناعة وكرم الأخلاق لسعادة الروح في الدنيا والآخرة[1] .

ومن وجهة أخرى يوصي المؤلف بأن يكون فضل الإنسان مرهوناً بأعماله الشخصية وليس بالافتخار بالأجداد وجاه الآباء والأقرباء السالفين وإلا « فهو الميت وهم الأحياء كمـــا قال الشاعر :

---

١ – انظر مقالة تشنر حول الفتوة والمروءة عند البيروني، **مجلة الإسلام** ، ج ٢٤ (١٩٣٨) ص ٦٩ – ٧١، وفي الجواهر ، طبعة ١٩٣٦ م ص ٨ – ١٢ .

إذا المـــرء لم ينهض بنفس إلى العـــلا فليس العظـــام الباليـــات بمفخـــرِ

وربما أفرط الفتى فتجاوز » لذا ينبه المؤلف من مغبة الإفراط في إيثار الغير على النفس ببذلها « أنفة من تحمل العار أو دفعاً للظلم وحفظا لحق الجوار » ، أو في سبيل إكرام الضيف والحفاظ على الأمانة كمـــا يروي عن سيرة الشاعر الجاهلي حاتم الطائي الذي اشتهر بشجاعته وسخائه حتى قيل عنه « أجود من حاتم » (توفي سنة ٦٠٥م) وكعب بن مامة الإيادي الذي يضرب المثل في جوده لأنه في ساعة العطش الشديد سقى صاحبه مما لديه من الماء ومات عطشان فأعطيا كل ماتملك اليد من دون مقابل (فالجود بالنفس أقصى غايـــة الجود)[1] .

إذاً لايتمكن المرء من تحقيق الفتوة إلا متى نال هانئ العيش ورغيده واتساع النعمة ليقوى بذلك على مساعدة الآخرين بالكد والاجتهاد ولا ملامة على من لم تساعده الأقدار على الوفاء بالغرض ، مادام قد كرس نفسه لإيذاء العدو ونفع الصديق وإشراك غيره في رزقه مستشهداً بشعر علي بن الجهم السامي (الذي هجا المتوكل فحبسه وتوفي عام ٢٤٩هـ/٨٦٣م) : —

ولاعار إن زالت عـــن الحـــر نعمة ولكـــن عـــاراً أن يـــزول التجمـــل

ثم أنه لايرائي لغرض تافه مذموم بل يقوم بواجبه احتساباً[2] .

ترويحة ٧ : هنا يقارن البيروني بين العاقل الحكيم الذي يجد لذته في الأمور النفسانية الروحانية والمثل العليا التي يلاحظها بعين البصيرة والاعتبار وبين الجاهل الغبي المنغمس في اللذات الحسية والمنجذب إلى صنوف الزينة (بما فيها المجوهرات) وزخارف الحياة التي تستهوي الغريزة الحيوانية فترقص أضلاعه لهـــا طرباً ولكن ماهذه برأي المؤلف ،

---

١ — حاتم الطائي (ت حوالي سنة ٦٠٥م) أحد شعراء العرب قبيل الإسلام اشتهر بشجاعته وسخاء جوده حتى ضرب فيه المثل في الكرم وله ديوان شعر طبع أكثر من مرة ، أما كعب بن مامة الإيادي فهو الجواد الذي آثر الموت عطشا ليعطي صاحبه مالديه من ماء .

٢ — علي بن الجهم (ت ٨٦٣م) كان شاعراً عباسياً تعشّق حرية الرأي والإباء . وأما الحسبة فهي الاحتساب عند الله وقبول الأجر لعمل صالح ، **سورة البقرة** : ٢٦٢ — ٦٣ (قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى . ياأيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى) ولأجل التفسير انظر عبد الجليل عيسى ، **المصحف الميسر** ، القاهرة ، دار الفكر ، ١٣٨١هـ / ١٩٦١م مرتب حسب السور مع الشرح .

إلا لذائذ سريعاً ماتزول وتعقب بعدها الحسرة والندم وتبدل نضارة الشباب وجماله إلى حطام الانحلال وفناء القوة وذبول القوام . « لكن هذه التذاكير لما كانت أعراضاً محمولة في أشخاص محدودة الأعمار بالية على تعاود الليل والنهار لم تخلد فهي من عالم الفساد والعناء فأقيم لهم بدلها من الجواهر المخزونة تحت الثرى في الأحجار المنعدة وفي المكنونة المصونة في أعماق البحار المسحورة ماكان أبقى على قرون تمضي وأحقاب تمر وتنقضي وكانت مِنّة عليهم » ، من خالق الكون الذي هو عالم بما لا نعلمه وقد أودع وجعل هذه الكنوز جاهزة في حينها من صنوف الأحجار الكريمة مثل اللؤلؤ والمرجان والياقوت والزبرجد والماس وما إليها[1] .

ولولا أهمية الزينة في عداد المجوهرات والأعلاق النفيسة لما انفصلت مبدئياً عن الذهب والفضة فإن سبيلها كلها في عدم الفناء وعند الضرورات سبيلهما إذ برأي المؤلف لامنفعة مباشرة تجنى منها في قضاء الحاجات الضرورية المنشودة لذا وإن كانت مختلفة عن نفيس المعادن في تثمين الحوائج ومستلزمات العيش ، « فإنها كذلك مثمنة بهما وربما كانت على وجه التعويض مزيحة العلل وهي جواهر جسمانية (يعمم بهذا على الياقوت والمرجان واللؤلؤ والزبرجد وغيرها من الأحجار الكريمة) ونفاستها بما يحس الحس منها (فحاسة البصر ترى ألوانها الرائعة وجمالها البديع وتنسيقها وانعكاس الضوء عليها) فيمدح بحسب ذلك ما دامت مستبدة به (لأنه ما دامت أهواء الناظر مغرمة ومنجذبة نحو المظاهر الجسدية الخلابة والمغرية) فإذا قورنت بالجواهر النفسانية انكشفت (حقيقتها) وَذُمَّ منها ماكان يُحْمد على مثال وصف أبي بكر الخوارزمي: إن رجلاً (قيل فيه) إنه درة من درر الشرف لامن درر الصدف وياقوته من يواقيت الأحرار لا من يواقيت الأحجار »[2] .

---

١ – **سورة الرحمن** : ٢٠ : ٢١ (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان فبأي آلاء ربكما تكذبان) **وسورة النحل** : ١٣ **وفاطر** : ١١ (وترى الفلك مواخر فيه ليبتغوا من فضله وتستخرجون منه حلية تلبسونها) **سورة الرحمن** : ٥٦ – ٥٧ أيضاً (كأنهن الياقوت والمرجان) انظر حمارنه، **فهرس الظاهرية** الطب والصيدلة ، دمشق ، مجمع اللغة العربية ، ١٩٦٩م ص ١١٠ – ١١٤ .

٢ – هو أبو بكر الخوارزمي (٣٢٥ – ٣٨٣هـ / ٩٣٥ – ٩٩٣م) كاتب وشاعر عاش في سورية وعاصر الحمدانيين لاسيما سيف الدولة ومات في نيسابور وقد طبعت رسائله أكثر من مرة في القسطنطينية، مطبعة الجوائب ، ١٢٩٧ هـ ، ونشر مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٧٠ وكذلك كتابه **مفيد العلوم ومبيد الهموم** (دمشق ، ١٣٢٣ هـ ، منسوب إليه) . انظر **وفيات الأعيان** لابن خلكان تحقيق إحسان عباس ، بيروت دار صادر ، ج٤ (١٩٧١) ص ٤٠٠ – ٣ . ويبدو أن البيروني لم ينجذب كثيراً لزينة الجواهر ورونقها ولم يحسبها صالحة للسكة والمقايضات إذ كان يرى جمالا أحرى في جواهر الأخلاق ودرر الحكمة التي انجذبت نفسه إليها .

ترويحة ٨ : هنا يقابل البيروني بين لذة الروح السامية ولذة الجسد الأرضية مقرراً أن اللذة بالحقيقة إنما هي مسألة مرهونة بلزوم ماازداد الحرص عليه إذا دام اقتناؤه له ، وهذه هي حالة النفس الإنسانية التي تستمتع بحيازتها للمعرفة النافعة والتعمق والغوص في المجهول وكشف أسراره وغوامضه « إلى أن يغلبها عند طلب الراحة من تعب المساعي ويلهيها عما كانت فيه بسبب العجز عن الاستمتاع » ، بما يشتهيه من رغبات أو فيما تطلبه من الحكمة والفهم .

وأما اللذات البدنية فإنها على النقيض إذ هي معقبة للآلام وجالبة للأسقام والأحزان تنبذ وتمل إذا دامت وتودي إذا أسيئ أو أفرط في استعمالها الامر الذي يؤدي بها إلى العبودية والشقاء والانحطاط عقلياً وروحياً وجسدياً مثلها كمثل الطعام الذي يحلو للجائع ثم تقل لذته بمقدار ما يؤخذ منه حتى إذا أكثر المرء منه وأتخم « أدى إلى الغثيان والتهوع والقذف » . فأطايب الدنيا كلها خبائث ومحاسنها قبائح فهي لاتشبع قلب الإنسان من جوع إنما تغريه فينقاد إليها فتأسره ليعود إلى طلبها مجبوراً فاقد الإرادة . والأمر الطريف حقاً ، وهو من الأهمية بمكان في تاريخ الطب والمعالجات ، أن المؤلف يشبه الشخص المسترسل والمستهتر في شهواته الجسدية « كمثل المخمور في العقارات » المسببة للهلوسة والاعتياد والتي بعد فقدان تأثيراتها يعود مرة أخرى راجعاً إليها وبإلحاح يطلبها . وفي هذا نجد أيضاً دليلاً آخراً على تمكن استعمال مثل هذه الأدوية المخدرة وانتشارها وعلائم ومجريات الاعتياد عليها في عصره والذي كان شاهد عيان لأثرها وما تورث متعاطيها من سلب الإرادة للمقاومة والانصياع[1] .

ولايغفل المؤلف عن الجزم بأن في وجود اللذة الجسدية ونشاطها وطلبها يكون دوام النوع وإبقاء للشخصية البشرية ومميزاتها في تعمير الكون حتى أن بني الإنسان ينمون ويكثرون ويملؤون الأرض ولتكن خشيتهم ورهبتهم على كل حيوانات الأرض وكل طيور السماء[2].

---

١ – كان البيروني قد لاحظ سوء استعمال العقاقير المخدرة والتي تسبب اعتياداً يصعب التخلص منه إذ أن الكثيرين من الصوفية ومن عامة الشعب أخذوا بتعاطي الأفيون والحشيش ليس لأجل المداواة والشفاء فحسب بل كمخدرات ، See Franz Rosenthal, *The Herb. Hashish versus Medieval Muslim Society*, Leiden, Brill, 1971, pp. 101–110; Sami Hamarneh, "Phramacy in medieval Islam and the history of drug addiction," *Medical History*, 14 (1972), pp. 226–237.

٢ – هي الحكمة القديمة في قوله تعالى « أثمروا وأكثروا واملؤوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض » **سفر التكوين** ١ : ٢٨ وأيضاً ٩ : ٢ ولكن البيروني فجأة ينتقل للحديث عن أهمية نظافة الفم والبدن اجتماعياً وصحياً ويشرح كيف أن التعرق يزدحم قليلا قليلاً ليسد مسام الجلد لذا وجبت النظافة والاستحمام مشبهاً ريح النفس الطيب بالمسك والعنبر .

ترويحة ٩ : يشرح البيروني هنا كيف أن للناس أحوالاً مختلفة في دنياهم يتقلبون فيها ويتعايشون معها فبعض منها يمرح وبعضها الآخر يذم ويرذل لاسيما ماهو مخالف للخلق القويم والنظافة وكرم النفس فالمحامد المشكورة فقطبها المروءة ، وإن مدار النظافة روحاً وجسداً هو على الطهارة والنقاء وإنه مغبوط وسعيد حقاً ذلك الشخص الذي له صديق مخلص ينفر مما لايرضاه لصديقه ويحب له مايريده لنفسه . ثم إن البيروني بالرغم من تقديره للصداقة وحسن العشرة إلا أنه يحذر من كثرة الأصدقاء وبلا حدود والذين يكثرون مع اتساع الحال والغنى وما أقلهم حين تشح ذات اليد مع أن في تكاثرهم الرقي إلى مراتب الرياسة والملك فيمن تعلو بهم الهمم ومن يطلبون الخير للجميع لاسيما لمن حولهم « تمنياً عند العجز وفعلا لدى القدرة » يوم تؤول إليهم الرياسة ، وطبيعي أن الجمال في الصورة وحسن الخَلْق محبوبان مرغوب فيهما « ولكن الصور عطايا في الأرحام لاسبيل إلى تغييرها لأحد من الأنام » إنما نزاهة النفس والدماثة هي في الأخلاق وحسن السيرة ومالك هواه هو القادر على نقلها من المذام والعار إلى المحامد وأعلى الرتب وما هذا إلا بمقدار مايعمل المرء على تهذيب نفسه بالحسنى وصالح الأفعال ومعالجة أسقامها بالطب الروحاني للتحلي بالفضائل والتقى والابتعاد عن الغضب والهموم[1] . في هـــذا المجال أيضاً يذكر البيروني بعض الأمور العملية التي بها المرء يستطيع أن يحسن خلقه وإن عجز عن تبديل صورة وجهه مع الإشارة لما هو معروف وبديهي أن الاهتمام إنما هو في المرتبة الأولى بالبشرة والتي هي أول مايلاقي من جسم الإنسان فينبغي إذاً تنظيفها بالماء الطهور وليس ذلك أدبياً وحسب العرف والعادة فحسب ولكن دينياً أيضاً ، [2] حتى أن السنانير الأهلية هي أحسن مثال في عالم الطيور في طلبها وسعيها في مراعاة نظافة جسمها والبيئة التي فيها تعيش على خير منهج .

ثم إن المؤلف يعدد بعض ما أوصى به رجال العرب ونساؤهم بناتهم من وجوب المحافظة على نظافة أجسادهن وبيوتهن طلباً في الإبقـــاء على السعادة الزوجية واعتبارهم

---

١ – كتب الكثيرون من علماء الإسلام وأطبائهم كالرازي وغيره في المعالجة التدريجية والطرق الواجب اتخاذها للرقي بالأخلاق وتهذيب النفس بالعادات الكريمة النزيهة فكما تلزم معالجة أمراض الأجساد كذلك وجبت معالجة أسقام النفوس . انظر **فهرس الظاهرية** ، دمشق ١٩٦٩ م ص ، ٨٧ – ٩١ ، وقد ترجم كتاب الرازي في **الطب الروحاني** إلى الإنكليزية في لندن ، ١٩٥٠ م كما حقق بالعربيه .

٢ – يقتبس المؤلف **سورة المائدة** : ٥ (ياأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا رؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين) وفي الحديث الشريف : « النظافة من الإيمان » .

بأن الماء وحده هو أصل الطيب ورأسه[1] .

لذلك بعد الاغتسال بالماء الطهور يوصي المؤلف أولاً التزين بالأصبغة والألوان والتي بمعونة الضياء سرعان ماتلفت إليها الأنظار بواسطة حاسة البصر . فمثلاً فإن تبييض البشرة وتوريدها بالغمر ثم تسويك الأسنان وتنظيفها وتنقية الأشفار وتكحيل العين وصبغ الشعر وتمشيطه وقص مايحتاج إلى القص ونتف بعضها وتقليم الأظفار وتسويتها كل ذلك لأجل تحسين مظهر الإنسان وتجميل منظره مع النظافة والذوق السليم . يتبع ذلك ذكر الثياب الملاصقة والمحيطة بالبدن لاسيما الماسة للجلد والتي يجب تنظيفها ليبدو لونها الأبيض المحمود زاهياً مصقولاً ولامعاً للتخلص من الغبار والدخان وما يعلق بها من الشوائب أو مايعكر صفو لونها . ومن البداهة أن من ينظف ثيابه لابد أن يبدأ أولاً بتنظيف بدنه لئلا يدنس وسخ البدن ودرنه هذه الثياب البيضاء النقية التي يتدثر بها ، ومن بعد ذلك لابد له أن يهتم بنظافة البيت الذي يسكنه والمجلس الذي يأوي إليه ليحافظ على نظافة ثيابه وهندامه من الداخل والخارج فيتم بذلك المراد . وطالما عبر الناس في الماضي عن طهارة النفس والقلب معاً وشبهوها بنقاء الثوب وبياض الإزار والحبيب وغير هذه الأمثلة والعبر التي تدلنا على الاهتمام بنقاوة الإنسان وبيئته وحفظه جسدياً وروحياً ورفع مستواه أخلاقياً واجتماعياً[2] .

ثم إن الجواهر تتلو الثياب رتبة من جهة الاهتمام حسب العادة في أكثر البلدان فيتحلى الذكور بالخواتم والتيجان « وما رصع من الوشم (الوشح) والمناطق والقلانس والقفازات والقضبان والأعمدة لهم ولمن مثُل بين أيديهم وللإناث مالهن من المداري والأكاليل والأسورة والخلاخيل والجبيرات والمعاضد والعقود والقلائد » . وهناك من هم

---

١ – يقتبس المؤلف هنا عدة روايات ننقل بعضاً منها لطرافتها وأهميتها في علمي الاجتماع والنفس كقول أم توصي ابنتها عند زواجها : « إياك والغيرة فإنها مفتاح الطلاق وأنهاك من إكثار العتاب فإنه يورث البغضاء وعليك بالزينة وأزينها الكحل وبالطيب وأطيبه الماء » . وقول أخرى « كوني لزوجك أمة يكن لك عبداً وعليك باللطف فإنه أبلغ من السحر والماء فإنه رأس الطيب » . وأخرى أيضاً « كوني لزوجك فراشاً يكن معاشاً وكوني له وطاء يكن لك غطاء وإياك والاكتئاب إذا كان فرحاً والفرح إذا كان مكتئباً ولايطلعن منك على قبيح ولا يشمن منك إلا أطيب الريح ولاتفشين له سراً لئلا تسقطين من عينيه وعليك بالماء والدهن والكحل فإنه أطيب الطيب » . ومع أننا لانعرف شيئاً يذكر عن حياة البيروني الخاصة إلا أننا من هذا نميل للظن بأنه كان متزوجاً فما أهته علومه وأبحاثه عن التأمل بما يجعل الحياة الزوجية طيبة هنيئة .

٢ – من المواضيع الهامة في عصرنا هذا بالنسبة للصحة العامة هي تأمين بيئة صالحة صحياً مع نظافة الجسم والثياب للمحافظة على الصحة البدنية والنفسية .

في طبقة المسرفين المبذرين والمترفين حتى إنهم يتعدون استعمال الحلي والمجوهرات بالامتداد والتطاول إلى تزيين ماهو خارج عن البدن نفسه إلى تزيين الحيطان وسقوف الدور وأبوابها ورواشنها قصد إظهار التفاخر والعظمة الإنسانية مع أن هذا الاقتدار يكون غالباً « بالتمويه لا بالتحقيق » مع العلم أنه بلا شك يستحب للإنسان أن يعنى على الدوام بأمر النظافة والكياسة خارجاً وداخلاً .

ترويجة ١٠ : يتابع المؤلف حديثه مشيداً هنا بأهمية الرياحين في التجمل والصحة العامة وروعة البيئة ولربما ترينا فكرة هذا الانسجام والشغف بجمال الطبيعة بعض تعلق البيروني بها كما قد تبين أيضاً في كتابه **الصيدنة في الطب** ، ومع أنه ليس لدينا أي برهان أو حتى حدس قطعي ولكن ربما كان هنا مجال للتكهن بأن تسمية المؤلف بأبي الريحان كانت وليدة هذا الاهتمام الذي لاحظه معاصروه فيه وشجعوه عليه فأعطوه هذا اللقب المميِّز لذلك نسمعه هنا يقول : « إن من أظهر الأدلة على كمال المروءة (وقد مرَّ التعريف بها والحديث عنها) تكميل النظافة بالأرايح الأرجة التي تتعدى إلى الغير فتلذه وترغبه في الاقتراب إليه والمناسمة (معه) وتخفي مافي الإنسان من العوار والوصمة» . وأنَّ المروءة اجتناب المحرمات والكف عن أذى الناس ومن ثم فهي الاعتصام بأصول الدين الحنيف الذي يوجب العدل والمساواة وقمع الظلم وإعانة المظلوم والبائس ومن ثم على خلاف من قيل فيه « إنه يَمْنَع رفده ويأكل وحده ويضرب عبده وأن من حسّن خَلْقَه بتحسين خُلُقه وهيأ مطعمه بالطيب من الحلال وأشرك فيه غيره بالتسوية » فهو العاقل والجواد وصاحب الفضل كما أنه يكون قد حافظ على النظافة والكياسة وقد زاد على ذلك باستعمال الطيب الممدوح العطر « فقد سر أكيله وآنس جليسه وأكرم نديمه وكف أذاه » وبذلك فعل لغيره ماأراد أن يفعله له غيره[1] .

كان البيروني يعتقد اعتقاداً جازماً بحق العباسيين بالخلافة بعد سقوط دولة بني أمية وببقائها في قريش ، ولعله كان سنّياً . والمهم هنا أنه بصراحة دافع عن هذا الحق وحارب التعصب وأبى الحط من قيمة أمراء المؤمنين ودافع عن اللغة العربية كلغة الدين والعلم

---

١ – وبرأي البيروني فإن نظافة الهندام تعني أيضاً حسن الطوية الداعية للطاعة وعز القناعة والأخذ بالأصوب لخير الإنسان في الحياتين العاجلة والآجلة ونرى في ذلك اهتمام علماء المسلمين بالطيوب وأدوية الزينة .
See for example S. Hamarneh, "The first independent treatise on cosmetology in Spain." *Bulletin of the History of Medicine*, 39 (1965), pp. 309–325.

معاً[١] . والمؤلف هنا يروي قصة مُعِزّ الدولة أحمد بن بويه (ت ٣٥٥هـ/٩٦٧م) الشيعي الشديد التعصب لعنصريته الفارسية ورغبته في الثورة ضد الخلافة العباسية زمن المطيع ، وكيف أنه أضمر بأخذ الخلافة لبني بويه اغتصاباً فنهاه عن ذلك برفق رجل تقي احتكم إليه فنصحه بالعدول لما في ذلك من مغامرة طائشة ومروق غير محمود واقتداء بقول الشاعر :

إذا كنت في نعمـــة فـارعهـا فـإن المعـاصـي تزيـل النـعم

فاستمعَ للنصح ، ولعل المؤلف ذكر هذه القصة ليشير إلى أهمية زينة النفس للملوك والعقلاء والنبلاء وضرورة التحلي بجواهر الأحجار الطبيعية ولكن التجمل بالأخلاق الحميدة وروح الولاء والإخلاص وحب العدل والنصح هي جميعها « اللؤلؤة الكثيرة الثمن » .[٢]

ترويحة ١١ : هنا يصل البيروني الذروة في تقدير القيم الإنسانية الرفيعة وطلب الخير والمساواة للجميع ودفاعه عن الخلافة الإسلامية كما أنه يقترب رويداً رويداً ، كما نظن إلى صلب الموضوع ، في بحثه عن الجواهر معنىً ومبنىً في نطاق تاريخي وعلمي ومنطقي فيقول ، « الناس كلهم بنو أبٍ (واحد) وأشباه في الصورة (لاسيما من ناحية علمي التشريح ووظائف الأعضاء) ولايخلون فيما بينهم عن التنافس والتحاسد الذي في غرائزهم بتضاد أمشاجهم وأمزجتهم وطبائعهم (بالإضافة إلى) الاشتمال على ماتعين منذ عهد ابنَيْ آدم (هابيل وقابيل) المقدّمين قربانين مقبولاً من أحدهما مردوداً على الآخر » ، لأنه عصى صوت الله وثار ضد أخيه ومع ذلك صرخ فاجراً ناكراً للجميل وعديم الود : « أحارس أنا لأخي » ولما لا حتى صار هذا البلاء المؤنس منذ فجر تاريخ البشرية وعم هذا الويل المرير[٣] . وإن مما يُحِدّ من طمع الإنسان وشره هو ، « خوف آجل من

---

١ – البيروني **كتاب الصيدنة في الطب**: تحقيق حكيم محمد سعيد، كراتشي – الباكستان، مؤسسة همدرد الوطنية ، ١٩٧٣ م ، ج ١ : ١٢ ، ج ٢ : ٢٦ – ٢٩ إذ يقول فيه « ديننا والدولة عربيان وتوأمان : ترفرف على أحدهما القوة الإلهية وعلى الآخر اليد السماوية ..... وإلى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم فازدانت وحلت في الأفئدة وسرت محاسن اللغة منها في الشرايين والأوردة » .

٢ – كان الخليفة العباسي المطيع (حكم بين ٩٤٦ – ٩٧٤ م) ضعيفاً فتمردت عليه مصر وفارس وزادت الفتنة في زمنه حتى تنازل عن الملك وفي ذلك الحين أضمر معز الدولة البويهي (٣٣٤ – ٣٦٣هـ / ٩٤٥ – ٩٦٧م) الثورة عليه وعصيان أمره . وفي سنة ٩٧٤ م تولى الخلافة الطائع الذي بلغت في أيامه سلطة بني بويه أوجها وقد خلفه سنة ٩٩١م الملك بهاء الدولة .

٣ – هذه اشارة واضحة إلى قصة هابيل وقابيل المدونة في سفر **التكوين** ٤ : ١ ١٦ وفي **سورة المائدة**: ٢٦ – ٣١ .

الله أو عاجل من السلطان ومالم يكن السلطان قوياً نافذ الأمر صادق الوعد والوعيد لم تتم له سياسة من تحت يده . فكل واحد منهم يرى أنه مثله وأنه أحق بماله ومكانه ولهذا قصر الملك على قبيلة لتنقبض أيدي سائر القبائل عنها ثم على شخص أفضل أشخاصها ثم على نسل له (يكون) ولي عهده فصار الحكم ملكاً لهم »(١) .

نرى هنا تحليلاً فلسفياً علمياً لنزعات النفس البشرية إلى السلطة والحكم ، كما يراها المؤلف ، بدافع أنانية قهارة مخيفة لذا يجب التحكم بها وضبطها ثم تسييرها في أقنية خاصة مع وجوب الحزم والارتباط العائلي والحق الوراثي لذلك يقول المؤلف شارحاً : « ثم أضيف إلى ذلك حال معجز بلغ في غاية القوة (وهو التأييد السماوي والأمر الإلهي) بالنص على نسب لايتعدى عموده كما كانت عليه الفرس زمن الأكاسرة وكما كان عليه الأمر في الإسلام من قصور الإمامة على قريش ومن وجبت له المودة لهم بالقربى وكما اعتقد أهل التبت في خاقانهم الأول بأنه « ابن الشمس الذي نزل من السماء » وأهل كابل أيام الجاهلية في برهمكين أول ملوكهم من الأتراك وأنه خلق في غار هناك يسمى بغرة (ولعله بغراخان أحد سلاطينهم) فخرج منه متقلسيا وأمثال ذلك من أساطير الأمم الصادرة عن حكمة تجمع الناس طوعاً على الطواعية وتحسم الأطماع في نيل كل واحد رتبة الملك» ، مبعثه عنصر تقليدي ديني حسب البلاد وجغرافيتها والتاريخ(٢) . ثم يشير البيروني إلى ظاهرة اجتماعية وسياسية هامة موضحاً فيها كيف أن الملوك يلجؤون إلى بناء القصور والقلاع وتزيين مجالسهم وإظهار الأبّهة والأمجاد لإكساب مركزهم وتزويده بهالات من التعظيم والإكبار في عيون الرعايا والأتباع ، فيضيف : « وكما يميز الملوك عن غيرهم بهذه الخصال كذلك تمموا التمييز بإعلاء الإيوانات وتوسيع القصور وترحيب الرحب والميادين ورفع المجالس على السّرر ، كل ذلك سمواً إلى السماء وإشرافاً على الخاص والعام من الملأ وإليه » ذهب البحتري في قوله :

وليس للبـــدر إلا ماحبيت بـــه   أن يستنير وأن تعالـــو منازلـــه

---

١ – في **الجواهر** للبيروني ، طبعة ١٩٣٦ م ص ٢٣ – ٢٤ يعطي المؤلف شرحاً لتطور الخلافة في الإسلام خاصة وغيرها من الحضارات عامة متمسكاً بأهداب الخلافة مدافعاً عن شرعيتها انظر حول الموضوع كتاب **تاريخ الإسلام** لحسن إبراهيم حسن، ج٤، طبعة أولى ١٩٦٨ م ، مكتبة النهضة المصرية ، ص ٣٠٣ – ٣٠٨ .

٢ – في غاية الأهمية مايذكره البيروني عن الحكم في الأفغانستان قبل انتشار الدين الإسلامي فيها ولعل العاصمة كانت آنذاك كابل (ربما هي كابول عاصمة البلاد الحالية) معبراً عن الأسباب التقليدية والدينية في قيام نظم الحكم واستمرار الملكية .

ولم تكن للزيادة في القدرة حيلة فجعلوها بالتيجان والقلانس واستطالوا بالأيدي حتى وصفت ببلوغ الركب كما سمى أهل الهند أحد ملوكهم مَهَابَاها أي طويل العضد والفُرْس بهمَنْ أردشير ريونردشت لأن ريونرد هو أصل نبات الريباس . وما لم يبلغ الماء في العمق لم ينبت وإن كان رأسه في ذرى الجبال » ، وهذه تصف بدقة المغالاة في تزيين القصور وإظهار الأبهة والجاه عند الملوك ذوي الأمجاد إلى حد فاق الحسبان[1] .

وكعالم اجتماعي واقتصادي وكمؤرخ عارف بالأحداث والأزمان ، يعود البيروني مرة أخرى ليوضح بثاقب بصره اهتمام الناس بالأحجار والأعلاق النفيسة وأثرها في كسب الوجاهة وتأييد السلطان مع العوامل السلوكية والاجتماعية وأسبابها المنوّه إليها في هذا الباب فاسمعه مثلا موصياً وناصحاً : « كل ذلك علامات لعلو الهمة وانبساط اليد بالقدرة . ثم تتزينوا بصنوف الزينة المثمنة لتحاو في القلوب وجلالة الأموال في العيون فتتوجه إليهم الأطماع وتناط بهم الآمال » ، والأحلام مشيراً هنا إلى الدور الذي تلعبه الجواهر في التأثير بآراء الناس وطرقهم المنهجية . وإن الأمر لايقف عند هذا الحد في طلب الأمجاد والسلطان بل يتعداها إلى المخابرات الجاسوسية وحيل السياسية وأحابيلها إذ يضيف قائلاً : « واحتالوا بحيل تفاضلت في البدعة والحسن والغرابة للغوص على سرائر الخاص من البطانة وأفعال العام من الرعية ومقابلتها بواجبها وفي إسراع ذلك على تنازح الديار بالفتوح المتناقلة والبرد المرتبة والسفن المطيرة والحَمَامات الهادية الطاوية للمسافات حاملة للأوامر والأمثلة في المدد اليسيرة حتى خيفوا في السر والعلن واجْتُنِبَتْ خيانتهم فيها وتوقف على ذلك من أخبار دهاة الملوك وحبابرتهم » ، وفي هذا ذكر لاستخدام الحمام الزاجل من نقل البريد المستعجل آنذاك بين بلد وآخر وغيرها من وسائل التنقلات والرحلات في العالم الإسلامي قاطبة[2] .

---

١ – في سخرية لاذعة يقارن البيروني بين نفع الماء للأرض والنبت ونفع الجواهر للزينة وفي معاملات الناس التجارية فمهما علا مصدر الماء لابد أن يصل الأرض الواطئة ليسقي البذور وينبت النبات وهكذا يوضح المؤلف أهمية الإصلاح الاجتماعي حتى تحظى طبقات الشعب الكادحة بقسطها من ثراء الدولة لتأمين رفاه العيش وهي نظرة إصلاحية إنسانية تدل على مشاعر المؤلف تجاه طبقات الشعب الفقيرة ووجوب الاهتمام برخائها أكثر من الاهتمام بالزينة والأبهة الملكية الخارجية ، والتيجان المرصعة بالجواهر ، انظر الوصف في **كتاب الخطط** لتقي الدين أحمد المقريزي ، طبعة بولاق ، القاهرة ، ١٢٧٠ هـ ، ج ١ : ٤١٣ – ٤١٦ : **والذخائر والتحف** ، للقاضي الرشيد بن الزبير ، تحقيق محمد حميد الله ، الكويت ، وزارة الإعلام ، ١٩٥٩م ، وجرجي زيدان **تاريخ التمدن الإسلامي** ، ج ٥ ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ١٢٨ – ١٣٤ .

٢ – في وصف البريد واستخدام الحمام الزاجل انظر صبح الأعشى ، للقلقشندي ، ج ٧ : ٢٣١ – ٣٣ ، ج ١٤ : ٣٨٩ – ٣٩٤ ، زيدان، **تاريخ التمدن الإسلامي** ، ج ١ : ٢٣٩ – ٢٤٣ .

ترويجة ١٢ : ومما سبق الإشارة إليه من تأكيد أهمية الغنى المادي بالذهب أو الفضة والجواهر وأثرها في المجتمع يستنتج المؤلف مدى القوة الخفية للمال في تسيير سياسة الملوك وسلطان الرؤساء كما يرى الدور الهام الذي يلعبه في تأييد الحكومات وتنفيذ مآربها مع تبرير مثل هذه التصرفات حيث يضيف : « الملوك أحوج الناس إلى جمع الأموال لأنهم بها يملكون الأزمة ويسيرّون بمكانها الأعنة » . وقد أوضح السبب الذي من أجله مثلا كان الخليفة أبو جعفر المنصور العباسي يجمع الأموال ويخزنها حتى وصمه الناس بالبخل وهو براء من ذلك لعدم إدراكهم لما كان يهدف من هذه النقود المخزونة ومايعمل من أجلها وقد شرح أمره لحاجبه مرة مفسراً كيف أنه بالمال يستطيع السلطان التحكم بمقدرات الناس لأنهم جميعاً بحاجة إليه ويتشوقون لاقتنائه فمن معه المال معه السلطان وله اليد الطولى في الحكم[1] . ثم يقول المؤلف في الأمير يمين الدولة محمود الغزنوي (٣٨٩ – ٤٢١هـ/٩٩٩ – ١٠٣٠م) إنه ماكان « يفرغ من فريسة قصدها وظفر بها إلا ويجيل بصره بعدها لأخرى يزحف إليها ويحوزها » ، حتى لايكون مجال للتوقف أو التغيير ثم إنه إذ كان قد وكل أمره للمنجمين سنة وهو عائد منصرفاً من مدينة خوارزم حيث أخبروه بامتداد حكمه لما ينيف على عشرة سنين أنه عندها أجاب : « إن قلاعي مشحونة من الأموال بما لوقسم على أيام تلك الأعوام لحاجتها بما لايعجزه إنفاق مرتب أو مسرف فيه » . وعند سماع ذلك حملت البيروني النشوة ، وكانت لاتزال بينهما بعض جفوة لقسوة السلطان وتفاخره وشدة بطشه ، على الإجابة قائلاً : « اشكر ربك وأسأله واستحفظه رأس المال وهو الدولة والإقبال فما اجتمعت تلك الذخائر إلا بهما ولن تقاوم بأسرها خرج يوم واحد غير منتظم بزوالها » ، فأمسك الأمير لأنه رأى في نصيحة البيروني بالاهتمام في رعيته والإنفاق على مصالحهم وتوفير السعادة لهم والمساواة بينهم لما فيه بقاء الملك يكون ذلك أبقى مأثرة وأخلد ثروة[2] . وتستمر علاقة البيروني بأمراء غزنة بعد

---

١ – اشتهر الخليفة المنصور (١٣٦ – ١٥٨ هـ / ٧٥٤ – ٧٧٥ م) بالجد والحزم والشدة والاهتمام بالرعية فلم يعرف عنه ميل إلى اللهو والعبث وكان حريصاً على جمع المال غير مسرف حتى اتهم بالبخل انظر **مروج الذهب** لأبي الحسن علي المسعودي ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ج ٣ ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، ص ٣١٨ ، ويروي أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في **تاريخه (تاريخ الرسل الملوك)** ، القاهرة ، دار المعارف ، سلسلة ذخائر العرب ٣٠ ، ج ٨ ، ١٩٦٦ ص ٧١ – ٧٣ وصيته لابنه المهدي قائلا « لاتصلح رعيته إلا بالطاعة ولاتعمر البلاد بمثل العدل ولاتدوم نعمة السلطان وطاعته إلا بالمال » .

٢ – يمين الدولة محمود الغزنوي (٣٨٨ – ٤٢١هـ / ٩٩٨ – ١٠٣٠م) غزا الهند اثنتي عشرة مرة واستولى على البنجاب وبلاد الغور وما وراء النهر ، وأسقط الدولة السامانية وخطب للخليفة القادر ، ولما استولى على ←

وفاة محمود فيخدم أيضاً الأمير مسعود (٤٢١ — ٤٣٣هـ/١٠٣٠ — ١٠٤١م) ابنه الأكبر ويغدق عليه النصح فلم يعتبر حتى مات شهيداً وتبدرت أمواله الدثرة ، المكتسبة منها والموروثة عن أبيه في يوم واحد[1] . وقد تلاشت كما يتلاشى الدخان في مهب الريح وذهبت هباءً منثوراً ، « ولم يكشف عن غادر به مقراً ولم يظهر في كسير جبراً » ، لأن قاتله لم يُعرَف وكان نصيبه الهلاك وبئس المصير لكثرة غروره وإثمه .

ترويحة ١٣ : يعطينا البيروني في هذه الترويحة خلاصة فلسفته في الاقتصاد والحياة الاجتماعية ويركز حديثه مرة أخرى على طبقة الصعالكة وطبقة الحكام وهما في طرفي النقيض والقاسم المشترك بينهما اجتماعهما على جمع المال المستخلص من باطن الأرض بسبب أحوالهم الخاصة وحاجاتهم الملحة إليه فيقول ، « الدفائن الباقية تحت الثرى ضائعة في بطن الأرض وهي تكون في الأغلب الطبقتين من الناس شديدتي التباين متباعدتين في الطرفين الأقصيين وهما أهل السلطنة وأهل المسكنة نصفهما على النحو التالي :

أولاً المساكين أو الصعالكة ، « فإنهم تعودوا الاستماحة (والتسول) واعتمدوها في تحصيل القوت علماً منهم بأنها هي رأس المال لاينقص (منه شيء) وخاصة مع الإلحاف في السؤال والإلحاح في الطلب (فالشحاذ لايضع رأس مال غير الشحذة والاستعطاء وكلام التوسل لاستجداء المحسنين فمهما حصل في يومه فهو مربحه لذلك اليوم) . فإذا استغنوا بها عن شراء مطعم أو مشرب (لأنهم يحصلون على هذه في الغالب بطريقة الاستجداء أيضاً) أخذوا في جمع الفلوس والحبات والقراريط ذوداً إلى ذود يصرفون الفلوس بالدراهم والدراهم بالدنانير وليس لهم أمـــين غير الأرض لأنها تؤدي ماتستودع وبأمانتها ، جرى المثل فقيل آمن من الأرض (فهذا كان بنك الاستيداع لهم آنذاك) . ثم يموت أكثرهم

← مدينة خوارزم قبض على البيروني وأستاذه عبد الصمد فقتل الآخر واستبقى البيروني لمعرفته بعلم النجوم . انظر ياقوت الحموي ، **معجم الأدباء** ، القاهرة ، دار المأمون ، ١٩٣٦ م ج ٢ : ص ١٨٠ — ١٩٠ ، وحسن إبراهيم حسن **تاريخ الإسلام** ، ج ٣ ، طبعه سابقة ، القاهرة النهضة المصرية ، ١٩٦٦م ص ٨٧ — ٩٧ وابن خلكان ، **وفيات الأعيان** ، ٥ : ١٧٥ — ٨١ ، وأبو الفرج ابن الجوزي ، **المنتظم** ، حيدر آباد ، دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٤٠ م ج ٨ : ٥٢ — ٥٤ .

١ — لقد هزم السلاجقة مسعوداً سنة ٤٣١هـ هزيمة منكرة وبعد أن أفلت من الأسر ثار مواليه عليه ونهبوا خزائنه وناصروا أخاه محمداً الذي قتل أنصاره مسعوداً في حرب أهلية سنة ٤٣٢هـ انظر علي بن الأثير **الكامل في التاريخ** ، طبعة بولاق ، القاهرة ج ٩ : ١٦٥ — ١٨٢ ، وعماد الدين إسماعيل أبا الفداء ، **المختصر في أخبار البشر** ، ج ٢ ، القاهرة الحسنية ، ص ١٦٤ — ١٦٥ .

إما فجأة من خشونة التدبير وإفراط التقتير (والسكتة القلبية) وإما من سوء حال لاييأس فيه مع الحرص من الإقبال والإبلال ولاتسمح نفسه فيما شقي في جمعه أن يكون لغيره حتى يتفوه بالإيصاء به فيبقى مدفونا (في الأعماق) قل أو كثر » وبذلك مع الأسف عاشوا آنذاك أخساء وماتوا غير مأسوف عليهم ولا على مالهم الرخيص[1] .

ثانياً : « فإن الملوك فلكثرة نوائبهم يعدون الذخائر للعدد ويحصنون (ويكنزون) الأموال في القلاع والمعاقل وأن يكون حمل ذلك إليها مستوراً لتوسط النقلة والحفظة بينهم وبينها فيحتاجون معها إلى خبايا (مخابئ ومستودعات) لايطلع عليها غيرهم فمنهم من لايراقب الله تعالى في الإتيان على ناقليها إلى المدافن (فيتخلص منهم) ، ومنهم من يحتاط في ذلك ويحتال بإيداع الفعلة (ضمن) صناديق فارغة ويتولى سوق البغال معهم إلى الموضع فإذا أخرج القوم بالليل من تلك الصناديق لم يعرفوا أثرهم من العالم وإذا فرغوا من الدفن أعيدوا إليها وردوا فحصل المرام وبعد عنه الآثام ولهذا شريطة هي أن لاتحمل منهم نفراً مرتين (وقد أهملها بعضهم واحتاطها بعضهم الآخر) إذ قد جعل(أحدهم) في أسفل الصندوق ثقبة وأعد مع نفسه كيساً من أرز أخذ ينثرها قليلاً قليلاً واقتفاها بالغد ففازوا بالمذخور ولم يقف صاحبه على الحال إلا بعد عشرين سنة لما احتاج إليها ولم يجد في المدافن غير حساب بهلول »[2] .

ثم أخذ بعدها يتابع المؤلف تحليله لمثل هذه الحالات والأحداث السياسية والاجتماعية والتي معها طالما تتعرض مثل هذه المدّخرات للدفن في باطن الأرض مرة أخرى كما كانت في طي النسيان فلا تكتشف إلا اتفاقاً أو نتيجة طوفانات وسيول عارمة تكشف عنها وتدل عليها . فكم من غني مدخر للأموال توفي تاركاً من بعده كنوزه دون أن يعرف بوجودها أو مكانها أحد غيره فتفقد، أو ملك يخزنها لحين الحاجة فيهرب أمام عدو مهاجم

---

١ – كانت « بنوك الفقراء والشحاذين بعد تحويلهم الفلوس والحبات والدراهم إلى دنانير فضية وذهبية هي مدافن في الأرض فضاعت بعد وفاتهم وبرأي البيروني هذه خسارة اقتصادية ومخالفة لشريعة الله الذي قصد لهذه الكنوز الصرف والمعاملة بأيدي الناس . انظر صالح الحمارنة ، « العملة العربية » ١٩٧٥ م ، ص ٤٠ – ٤٥ ، عبد العزيز الدوري ، **تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري** ، بغداد ، مطبعة المعارف ، ١٩٤٨م، وطاش كبري زاده ، **مفتاح السعادة** ، ج ١ ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة ، ١٩٦٨ م ، ص ٣٩٣ في حساب الدرهم والدينار .

٢ – البهلول « السيد الجامع لكل خير أو الضحاك » ولكن صار مثلا لما لانفع مما جمعه من الخيرات .

ويتركها خلفه مدفونة في الأرض وليس من يجمع أو يحصي عليه ماأودع[1] .

ترويحة ١٤ : ويستمر البيروني في توضيح نظرياته في الأمة وسياسة الاقتصاد بين الناس في المعاملات واستحسان استعمال النقود الورقية أو المعدنية ومن بينها الجواهر فيقول : « لما احتاج الملوك في حركاتهم وانتقالاتهم الاختيارية والاضطرارية إلى أصحاب أموال تصحبهم من أجلها خدمهم وينزاح بهم العلل في إخراجاتهم وعوارضهم وكان الورق أخف محملاً من المثمن به في المصالح (كالفلوس والدراهم والدنانير مثلاً) نظروا إلى الفاضل عليه في ذلك فوجدوه العين (خيار الشيء ونفيسه وماضُرِبَ نقداً من الدنانير) فإن المثمن من المطالب (الأخرى) يكون عشرة أضعاف مايحصل بالورق على الأصل القديم المعين في الديّات والزكوات وإن تغير بعد ذلك لعزازة الوجود ونزارته في بعض الأحايين دون بعض أو لفساد النقود (وصدئها) وإما في أصل الجبلة في كل عالم »[2] . ثم إن البيروني يعمل مقارنة بين ماسبق ذكره من أهمية العملة الورقية وبين الجواهر والأعلاق النفيسة وما لها من القيم وإمكانية وجودها ومحتوياتها وأفضلية استعمالها بالنسبة لأوزانها وأثمانها . بعد ذلك يأخذ بيد القارئ بصورة غير مباشرة إلى صلب موضوع بحثه في أصل الجواهر الكريمة ونفعها وعلو قدرها مادياً ومعنوياً والنواحي النفسية والاجتماعية التي أدت إلى انتشارها وأهمية تداولها وسهولته وخفته ثم يصرح قائلاً : « فإن الذهب أعز وجوداً من الفضة والفضة أقل وجوداً من النحاس ويناسبها صغَر الحجم وعظمة ورجحان الوزن ونقصانه » . وهو يذكر أحد المناجم الذي يعطي من بين معادنه ، « هذه الأجناس الثلاثة بتفاضل مقارب لهذه النسبة وذلك أن عطية الوقر فيه من الذهب عشرة دراهم ومن الفضة وزن خمسون (إلى خمسة أضعاف) ومن النحاس خمسة عشر منا (أكثر من مئة ضعف) فلهذا آثروا العين على الورق في الاصطحاب مما خف عليهم حمله وحين لم يأمنوا الواقعات

---

١ – يروي لنا البيروني قصص بعض من دفنوا كنوزهم في الأرض ففقدت ، **في الجواهر** ، طبعة ١٩٣٦ م ، ص ٢٧ – ٣٠ ، ويكتب طاش كبري زاده **بمفتاح السعادة** ، ج ٣ ، دار الكتب الحديثة ، حول آداب الكسب والمعاش وتفرقة السلاطين المال على الفقراء ، ص ٢١٠ – ٢٤٥ ، ويتحدث الجاحظ في كتابه **البخلاء** ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧١ م (ذخائر العرب رقم ٢٣) عن أخبار كثيرة تؤيد ماجاء البيروني على ذكره حول الصعاليك .

٢ – عبد الكريم الخطيب ، **السياسة المالية في الإسلام** ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٦١ م ص ٢٤ – ٣٢ ، وعبد المنعم ماجد **تاريخ الحضارة الإسلامية** ، طبعة ٤ ، القاهرة ١٩٧٨ م ص ٣٥ – ٤٦ ، وأحمد حسن الزيات ومن معه ، **المعجم الوسيط** ، مجمع اللغة العربية ، طبع المكتبة العلمية ، طهران ، ج ٢ : ٦٤٧ يذكر أن العين ماضرب نقداً في الدنانير .

النائبة سجالا وقد عُرِفَ أن النجاء فيها بالقلة والخفة مالوا إلى الجواهر إذ كان حجمها عند حجم الذهب أقل قدراً من حجم الذهب عند الفضة وحجم الفضة عندما يشتري بها من المصالح فاصطحبوها معهم وقرنوها بأنفسهم » ، وإن هذه الجواهر نفسها التي يعتز ويتباهى باقتنائها الملوك والعظماء تكون وبالا عليهم إن شاؤوا التنكر والاختفاء عن عيون المراقبين وفي يد العامة تصبح سبباً في اتهامهم بسرقتها أو بالشك في أمانتهم إذ ليس من المنتظر أن أمثالهم يملكون مثل هذه الجواهر النفيسة الثمن فيصرح قائلاً : « ولكنها عند إلجاء تلك الحوادث إلى التنكر ربما صارت ساعية (فتكتشف بسرعة) دالة عليهم كما نَمَّ بفتية الكهف عتق السكة في الورق حتى اتجهت عليهم التهمة بوجود ذخيرة عتيقة » ، ثم يضيف المؤلف قائلاً : « إن الجواهر خاصة من آلات الملوك (وهذا مدار حديثه) فإذا كانت عند غيرهم ممن لايليق بحاله تاونت الظنون فيه بأنها إما مسروقة (وهذا منطق اجتماعي وقانوني متبع حتى في عصرنا هذا) والسارق (حينئذ) مطلوب ، وإما ممتلكة حقاً لمتنكر من الكبار ومثله مرصود » ، وفي كليهما خسارة[1] .

ثم يعبر البيروني عن التطورات الاجتماعية والأخلاقية والعمرانية المترتبة على جمع الكنوز الأرضية كالجواهر فيقول : « وقد كان فضلاء الملوك يجمعون الأموال في بيوتها وفي المساجد ويجلبونها من أجمل وجوهها ثم يكنزونها بالتفرقة في أيدي حماة الحريم ثم الدافعين مضار العدو عن الحوذة إذ كانت أول فكرتهم آخر عملهم وهم كالخلفاء الراشدين ومن يشبه بهم مقتدياً مثل الخليفة عمر بن عبد العزيز والكثير من المروانية والقليل من العباسية إذ كانوا يرون ماقلدوه عبئاً ثقيلاً قد حملوه ويحتسبونه محنة ابتلوا بها فكانوا يجتهدون في نقص إصرها ويتحرجون عن التردي في وزرها » ، فهؤلاء الخلفاء الصالحون إذا لمسوا أهمية المسؤولية الواقعة على عواتقهم تجاه رعاياهم لم يستبدلوها بطلب القوة في المال والجواهر والممتلكات بل بإجراء العدل والمساواة والحفاظ على مصالح الشعب ورفاهيته بالرفق وحسم الظلم وعون البائس[2] .

ويروي هنا المؤلف خبراً تاريخياً مفاده أن قاطني إحدى النواحي في بلاد المغرب

---

١ – **سورة الكهف** : ٨ – ٢٦ وفي هذا الغرض يشير البيروني إلى تغير أنواع وأشكال العملات بتغير الدول .

٢ – كان عهد الخلفاء الراشدين (١١ – ٤١ هـ) وزمن حكم الخليفة عمر بن عبد العزيز وغيره من المروانية يمتاز بالتمسك في الدين الإسلامي والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (في القرنين الأول والثاني للهجرة) وقد سجلت في هذه الحقبة الحضارية الإسلامية صفحات مجيدة في الفتوحات وتقدم العلوم والمعارف .
See John A. Williams, *Themes of Islamic Civilization*, London, 1971, pp. 59–80.

كانت الإمارة تدور فيما بين أعيانها وشآتهم على نوب يقوم بها من يأتيه دوره لمدة ثلاثة أشهر ثم ينعزل عنها بنفسه عند انقضاء أمدها فيقدم الهبات والصدقات شكراً على عمل قام به وانتهى حتى تتاح له فرصة العودة إلى أهله مسروراً كأنما قد حُلَّ من عقال حتى ينصرف لشؤونه ويزاول أعماله الخاصة بينما يأخذ وظيفته آخر لثلاثة أشهر وهكذا .

وفي هذا نرى صورة رائعة لتطبيق مبدأ العدالة في الحكم مع النزاهة والتضحية في خدمة البلد والتفاني في المبادئ الإنسانية والديمقراطية الحقيقية فأين هذا في عصرنا حيث نجد التكالب على الكراسي والحرص على حفظ الألقاب والمراكز . ويفسر المؤلف هذا التصرف على الوجه التالي : « وذلك لأن حقيقة الإمارة والرياسة هي هجر الراحة لراحة المسوسين في إنصاف مظلومهم من ظالمهم وإتعاب البدن في الذود عنهم وحمايتهم في أهليهم وأموالهم ودمائهم وإنصاب النفس في إنشاء التدابير » ، لأنه بذلك يوقف نفسه على خدمة البلد والدفاع عن حياضه وتأمين مصالح أفراد الرعية بكل ماأُوتي من قوة وحكمة التدبير وحب العدالة وكرم الأخلاق ورفع الضيم وصيانة الكرامة في الأمة[1] .

ترويحة ١٥ : هذه آخر التراويح التي تخطها يد المؤلف في هذه المقدمة لكتابه **الجماهر في معرفة الجواهر** ، وهنا نجد مرة أخرى معالجة جذرية لقضايا اقتصادية واجتماعية خاصة بالمعادن المتداولة كالعملة في أيدي الناس ووجوب وقايتها من الغش وحكم الشرع في ذلك فيقول : « إنما حرم شرب الماء في أواني الذهب والفضة لما تقدم ذكره من انقطاع النفع العام بها واتجاه قول الشيطان عليه (سورة النساء : ١١٨ ولآمرنهم فليغيرن خلق الله) ولنكتة ربما قصدت فيه وهي أن هذه الأواني لاتكون إلا للملوك دون السوقة وللآنام بين الأيام من الضيق والسعة دول تدول وأحوال تحول وتجول فإذا صرف ما حقه أن يَبُثَّ في الأعوان إلى تلك الأواني اتكالاً على كثرة القنية أيام الرخاء (من دون أن يهتم بالإنفاق على أتباعه) ثم دار الزمان وأتى بعده (فافتقر) ، أحوج إلى سكبها وطبعها دراهم ودنانير ففترت النيات بظهور الضيقة وطمع الأعداء بانتشار خبر الضعف والإفلاس بين الناس ، فهم عبيد الطمع ومانعو الحقوق إذا أمكن ، وهو المعنى المظنون به أنه محشو تحت التحريم فلن يخلو السرع من مصلحة عامة أو خاصة دنياوية أو آخرانية » . هذه دروس ومواعظ من الماضي البعيد يدرجها المؤلف مع إيضاح وثاقب بصيرة لينقل لقارئيه

---

١ – يعطينا البيروني هنا آراء جديدة في صلاح الحكم العادل والشورى مع أنها تحمل معاني مثالية غير متوفرة في العالم السياسي على حقيقته ، ولاشك أن المبادىء الدينية كان لها الأثر الكبير في ذلك الاتجاه عند المؤلف .

موعظة في معنى القناعة والفطنة وينصح القارئ من مغبة الشر والانحراف والسير في طريق السلامة « من الغاشين والدعار » مما يؤدي إلى الخيبة والدمار[1] .

وينهي البيروني مقدمته في فصل أخير يعبّر فيه عن محاولته لبحث « الجواهر والأعلاق النفيسة المذخورة في الخزائن » عند الملوك والنبلاء ويبدي رغبته في دراسة كل جوهر أو معدن في فصل مستقل به متسلسلا من مقالة إلى أخرى ذاكراً أصل الجوهر أو المعدن ومنبته في الأرض وأشكاله وألوانه وأحواله وكثافته النوعية وأوصافه الظاهرة والخفية وأثمانه المعروفة أو المنسوبة وإقبال الورى في طلبها للزينة ولقيمتها المادية أيضاً .

هذه هي مساقات ومواد الكتاب في مقالتين : المقالة الأولى في الجواهر : الياقوت مع أشباهه من الجواهر كاللعل البدخشي والبيجاذي ، والألماس ، والسنباذج واللؤلؤ ، والمرجان ، والزمرد وأشباهه ، والفيروزج ، والعقيق ، والجزع ، والبلور ، والبسد والجمشت ، واللازورد ، والدهنج ، واليشم ، والسبج ، والبادزهر وحجر التيس (الترياق الفارسي أو الباذزهر) والموميا ، وخرز الحيات ، والختق ، والكهربا ، والمغناطيس ، وحجر الخماهن والكرك ، والشاذنج ، والزجاج ، والمينا والقصاع الصينية ، والأذرك . والمقالة الثانية في الفلزات : الزئبق ، والذهب والفضة والنحاس والحديد ، والاسرب ، والخارصيني وأشباهه ، والطاليقون . فهذا التقسيم يعطينا فكرة عن كيفية نظر البيروني إلى هذه المواد الطبيعية وتمييز الجواهر والأحجار منها بألوانها وصفاتها الطبيعية عن المعادن المستخرجة من المناجم بما في ذلك أنواع الأتربة والطباشير وسواها[2] .

استنتاجات ختامية : بعد مراجعة قول البيروني في مقدمة كتاب الجماهر يميل كاتب هذه المقالة إلى ترجيح الاستنتاجات والاقتراحات والتعليقات الآتية :

---

١ – كانت هناك محاولات لاستعمال أوانٍ وأدوات ذهبية وفضية ليس فقط في البيوت والمعاملات التجارية بل أيضاً في الصناعة الطبية مثل عمل آلات جراحية كالمكاوي والإبر ومقاص الختان والمراود وأواني العطور والأدوية ولاشك فإن هذا يدل على ثراء في البلاد ورفاه ، أما البيروني فقد حاول تنبيه قارئه إلى توقي الغش الذي يحاوله الكثيرون للانتفاع من قيمة هذه الجواهر والمعادن النفيسة وزيادة أرباحهم غشاً وطمعاً .

٢ – قسم البيروني كتابه **في الجواهر** إلى مقدمة عرفناها مع تعليقات وشروح باختصار ثم مقالتين فصل فيهما بين الجواهر ذات الألوان البراقة والصفات الطبيعية الجذابة كالياقوت واللؤلؤ وبين المعادن ذات الوزن النوعي والصفات الخاصة بها ومنها الصلب كالنحاس والفضة ومنها اللين الرجراج كالزئبق والهش كالطاليقون مما له أهمية في تاريخ علمي الكيمياء غير العضوية والطبيعية .

١ ـ كانت لدى البيروني ، بثاقب نظره وعمق اختباره وسعة اطلاعه ، نظرات وآراء في الدين والاجتماع والاقتصاد والعمران وجد في هذه المقدمة لها مخرجاً لتسجيلها ومعالجتها وشرحها فجاءت سهلة المأخذ ضمن فكرة تأملاته الهادئة العميقة .

٢ ـ كانت في نفس البيروني ثورة جدية واعية ضد الانحراف الاجتماعي والمظالم والانخداع بمظاهر الأبهة والتسلط الزائف فأراد محاربتها وكشف خداعها بأسلوبه الواقعي المقنع اللطيف دون إثارة النعرات والضوضاء حوله .

٣ ـ كان مدار حديثه من بعيد وحتى من قريب ، أن يقود القارئ إلى تركيز نظره وفكره في القيمة الحقيقية والتقليدية للجواهر والأعلاق النفيسة وكأن البيروني نفسه يود أن يبعث الطمأنينة والثقة إلى نفس القارئ والإتيان بالقيمة الحقيقية لهذه المنتجات الطبيعية وأنه يعطيها حقا من الاهتمام بلا زيادة ولا نقصان لئلا تغوي المرء بألوانها الزاهية البراقة وما يتبع ذلك من تهالك الناس على اقتناء الذهب والمجوهرات فيهمل أهمية مايمكن تحقيقه بواسطتها في الصناعة والحيل والمعاملات التجارية بين الناس من خدمـــة جلى لسهولة تداولها وجمال تكوينها وبديع صنعها سواء أكانت في باطن الأرض أم بعد اكتشافها واستعمالاتها المتباينة .

٤ ـ يقدم المؤلف أيضاً آراء أصيلة في غاية الأهمية بما يختص بتاريخ الاقتصاد والسياسة والمجتمع الإنساني مشيراً إلى ما للناحية الدينية من الأثر البعيد في إشادة بناء صرح متين من الخلق الحسن والفضائل بالتمسك بأهداب الدين الحنيف بإخلاص وإيمان قويم صادق بعيد عن المظاهر الزائفة والرياء الكاذب الذي أصبح كسوس ينخر في جسم الأمة كلها حتى صار التدين ثوباً خارجياً ليس إلا .

٥ ـ بأسلوب رائع منهجي صحيح وواقعي يعطي البيروني رصيداً وافراً في الاصطلاحات اللغوية القيمة في العلوم والحيل والفنون والآداب مؤكداً بذلك مرة أخرى غنى لغة القرآن الكريم ومقدرتها على استيعاب العلوم والمعارف كلها في عصره ومسايرة التقدم فيها فأجاد بذلك أيما إجادة مما يجعل هذه المقدمة آية في الإبداع والإعجاز وفريدة أدبياً وعلمياً من نوعها في الحضارة الإنسانية .

٦ ـ كان المؤلف نفسه من ناحية عالماً بانتشار طرق الغش والخداع من قبل عدد كبير من جواهريي (جواهرجيي) عصره ومهارتهم في أساليبهم الكاذبة ، ومن ناحية أخرى

بحقيقة ندرة ماكتب حول موضوع الجواهر والفلزات لاسيما من يعين على تعريف أصلها ومنابعها ومعرفة الجيد منها والرديء وأوزانها النوعية وألوانها وصفاتها الطبيعية والكيميائية فأراد بتأليف هذا الكتاب أن يملأ فراغاً في هذا الموضوع الهام فأثرى بذلك الخزانة العربية الإسلامية التراثية بسفر نفيس في بابه ونسيج وحده في فصوله وأبوابه فحق له تخليد الذكر .

٧ ـ وأخيراً يؤكد المؤلف في حراره الفردي ومناقشته ومناظراته الشخصية بأن مشكلة الإنسان الحقيقية ليست هي في أساسها اقتصادية أو سياسية فحسب إنما هي معضلة روحية أخلاقية وأن المال والثراء والجواهر التي يعتبرها الأغلبية الساحقة بأنها هي زينة الحياة الدنيا إنما هي في الواقع ليست كذلك ولاهي شرطاً لتكون عونا في رغد الحياة الأخرى وأن هذا الإغراء والتكالب إن هو إلا مظاهر خلابة تبهر العيون لطلب القوة والسؤدد والغنى الفاني ولكن الغنى الحقيقي الباقي هو غنى النفس بالفضائل الإنسانية ومكارم الأخلاق والقناعة مع التواضع في العيش والعمل للغير مايريد المرء لنفسه وبذلك السعادة المنشودة .